4 me Année, No. 162

Lundi - 10 - 8 - 1936

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة

٦٠ م	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

مكتب الاعلانات

٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة

تليفون ٤٣٠١٣

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة

بشارع المبدولى رقم ٣٢

عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العدد ١٦٢ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٢ جمادى الأولى سنة ١٣٥٥ — ١٠ أغسطس سنة ١٩٣٦ » السنة الرابعة

فهرس العدد

صفحة		
١٢٨١	ساكنو الثياب ...	الأستاذ مصطفى صادق الرافعى
١٢٨٣	من ذكريات عابر سبيل	الأستاذ ابرهيم عبدالقادر المازنى
١٢٨٨	لغة الأحكام والمرافعات	الأستاذ زكى مبارك ... ...
١٢٩١	مجاز الشرق والغرب ...	الأستاذ محمد عبد الله عنان ...
١٢٩٣	دين الفنى	الأستاذ سعيد الأفغانى ... ...
١٢٩٨	فى النقد أيضاً	محمد مظهر الجلاد ... ...
١٢٩٩	شعراء الموسم فى الميزان	الأديب عباس حسان خضر ...
١٣٠٣	أبو بكر بن العربى ...	الأستاذ عبد الرحمن البرقوقى
١٣٠٤	السيرة النبوية وكيف يجب أن تكتب	الأستاذ ابراهيم الواعظ ...
١٣٠٧	الواحة المجهولة (قصيدة)	الأستاذ نظمى أبو السعود ...
١٣٠٨	اليسر «	الأستاذ عبد الرحمن شكرى ...
١٣٠٩	رأس البر «	الأستاذ محمد يوسف المحجوب
١٣١٠	أعصاب (قصة)	محمود البدوى ... ...
١٣١٢	ساحر العانس «	السيدة وداد السكاكينى ...
١٣١٥	أنتيجونى «	الأستاذ دريني خشبة ... ...
١٣١٧	عطف المسلمين على منكوبى فلسطين . مسألة الأجناس .	
١٣١٨	رواية عن مصر الفرعونية . رحلة فى بلاد العرب .	
١٣١٨	ذكرى مؤلف المارسيز . وفاة كاتب ألمانى كبير ...	
١٣١٩	سعد زغلول (كتاب)	الأستاذ عبد الرحمن صدقى ...

ساكنو الثياب...

للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

قال صاحب سرّ (م) باشا رحمه الله: وجاءنى يوما اثنان من شيوخ الدين من ذوى هيئاتهم وأصحاب المنزلة فيهم، كلاهما هامَةٌ وقامة، وجُبَّة وعمامة، ودرجةٌ من الامامة؛ ولهما نسيم ينفُحُ عِطْرا حبتُه من ترويح أجنحة الملائكة، وعليهما من الوقار كظل الشجرة الخضراء فى لهب الشمس تنوء به يَمْنةٌ ويَسْرةٌ. فتوجَّهتُ اليهما بنظرى، وأقبلتُ عليهما بنفسى، ووضعت حواسى كلها فى خدمتهما؛ وقلت هؤلاء هم رجالُ القانون الذى مادتُه الأولى القلب

ما أسخف الحياةَ لولا أنها تدل على شرفها وقدرها بعض الأحياء الذين نراهم فى عالم التراب كأن مادتهم من السُّحُب، فيها لغيرهم الظل والماء والنسيم، وفيها لأنفسهم الطهارة والعلوُّ والجمال. يثبتون للضعفاء أن غير الممكن ممكن بالفعل، إذ لا يرى الناسُ فى تركيب طباعهم إلا الاخلاصَ وإن كان حرماناً، وإلا المروءة وإن كانت مشقة، وإلا محبة الانسانية وإن كانت ألماً، وإلا الجِد وإن كان عناء، وإلا القناعة وإن كانت فقراً.

هؤلاء قوم يؤلّفون بيد القدرة ، فهم كالكتب قد انطوت على حقائقها وخُتمت كما وضعتْ لا تستطيع أن تخرج للناس من حقيقةٍ نصفَ حقيقة ولا شبهَ حقيقة ولا تزوراً على حقيقة

وما أعجبَ أمرَ هذه الحياة الانسانية القائمة على النواميس الاقتصادية ! فالسماءُ نفسها تحتاج فيها إلى سمامرة لعرض الجنة على الناس بالثمن الذى يملكه كل انسان وهو العملُ الطيب

قال : ونظرت إلى الشيخين على اعتبار أنهما من بقية النبوّة العاملة فيها شريعةُ نفسها ، تلك الشريعة التى لا تتغير ولا تتبدل كيلا يتغير الناس ولا يتبدلوا . ثم سألتهما عن حاجتهما فاذا أحدهما قد عمل أبياتاً من الشعر جاء يمدح بها الباشا ليزدلفَ اليه ؛ فقلت فى نفسى : ما أشبهَ حَجلَ الجبال [1] بألوان صخرها ! هذا عالِمُ دنيا يمدها من الشرق الرغيفُ ، ومن الغرب الدينار ، ومن الشمال الجاه ، ومن الجنوب الشيطان

ثم نشر ورقةً فى يده وأخذ يسرد على القصيدة ، وهى على رَوىّ الهاء تنتهى أبياتها ها . ها . ها . فكان يقرؤها شعرا أو كما يسميه هو شعرا ، وكنت أسمعها أنا قهقهة من الشيطان الذى ركب أكتافَ هذا العالم الدينى ها . ها . ها . ها ....

* * *

قال صاحب السر : وأدخلتهما على الباشا فوقف المدّاح يمدح بقصيدته ، وأخذت لحيته الوافرة تهتز فى انشاده كأنها منفضة ينفض بها المَلَل عن عواطف الباشا . وكان للآخر صمتٌ عاملٌ فى نفسه كصمت الطبيعة حين تنفطر البذرةُ فى داخلها ، إذ كانت الحاجةُ حاجتَه هو ، وإنما جاء بصاحبه رافداً وظهيراً يحمل الشمس والقمر والليث والنيث لتتقلب الأشياء حول الممدوح فيأخذه السحر ، فيكون جواب الشمس على هذه اللغة أن تضيء يوم الشيخ ، وجواب القمر أن يملأ ظلامه ، وجواب الليث أن يفترس عدوّه ، وجواب النيث أن يهطل على أرضه

والباشا لا يدع ظرفه ودعابته ، وكان قد لمح فى أشداق العالم المتشاعر أسناناً صناعية ، فلما فرغ من نظمه الركيك قال له : ياأستاذ أحسبنى لا أكون إلا كلذباً إذا قلت لك لا فُضّ فوك ...

ثم ذكر الآخر حاجته وهى رجاؤه أن يكون عمدة القرية من ذوى قرابته لا من ذوى عداوته . فقال له الباشا : ولقريتكم أيضاً أبو جهل .... ؟

* * *

ولما انصرفا قال لى الباشا : لأمر ما جعل هؤلاء القوم لأنفسهم زياً خاصاً يتميزون به فى الناس ، كأن الدين بابٌ من التحرف والتصرف ، بعض آلته فى ثيابه ؛ فهؤلاء يكنون الجبب والقفاطين وكأنها دواوينُهم لا ثيابُهم ...

قد أفهم لهذا معنى صحيحاً إذا كان كلُّ رجل منهم محصوراً فى واجبات عمله كالجندى فى معانى سلاحه ، فيكون التعظيم والتوقير لثوب العالم الدينى كأداء التحية للثوب العسكرى ، معناه أن فى هذا الثوب عملاً سامياً أوله بيع الروح وبذل النفس وترك الدنيا فى سبيل المجتمع ؛ هذا ثوب الموت يُفرَض على الحياة أن تعظّمه وتجله ، وثوب الدفاع تجب له الطاعة والانقياد ، وثوب القوة ليس له إلا الهابة والاعزاز فى الوطن

ولكن ما ذا تصنع الجبة اليوم ؟ تُطعم صاحبها ...

أثر الجيش معروف فى دفاع الأمم العدوة عن البلاد ، فأين أثر جيش العلماء فى دفاع المعانى العدوّة عن أهل البلاد وقد احتلت هذه المعانى وضربت وتملكت وتركت هذا العالم الدينى فى ثوبه كالجندى المنهزم يحمل من هزيمته فضيحة ومن ثوبه فضيحة أخرى ؟

أنت يا بنى قد رأيت الشيخ محمد عبده وعرفته ؛ فرحم الله هذا الرجل ما كان أعجبَ شأنَه ! لكأنه والله سحابة مطوية على صاعقة . ولو قلتُ إنه قد كان بين قلبه ورأسه طريقٌ لبعض الملائكة لأشبه أن يكون هذا قولاً

كان يزورنى أحياناً فأرانى مرغماً على أن أقدم له مجلسين أحدهما قلبى . وكان له وجه يأمر أمراً إذ لا تراه إلا شعرت به يرفعك الى حقيقة سامية [2]

رجل نَبتَ على أعراقٍ فيها إبداعُ المبدع العظيم الذى هيأه لرسالته ، فمواطفه كالعطر فى شجرة العطر الشَّذِيَّة ، وشمائله كجمال السماء فى زرقة السماء الصافية ، وعظمته كروعة البحر فى منظر البحر الصاخب . وكثيراً ما كان يتعجب من هذا أستاذه

(١) هذا مثل عربى ، والحجل الطائر المعروف يكون فى الجبل من لون صخره للعلة المقررة فى التاريخ الطبيعى

(٢) وصفنا الشيخ رحمه الله فى كتابنا (السحاب الأحمر) واستلهمنا روحه فصلا طويلا تجده هناك

السيد جمال الدين الأفغاني فيسأله مندهشاً : بالله قل لي : ابن أي ملك أنت ؟

لم يكن ابن ملك ولا ابن أمير ، ولكنه ابن القوات الروحية العاملة في هذا الكون ؛ فهي أبعدته ، وهي ألهمته ، وهي أنطقته ، وهي أخرجته في قومه إعلاناً غير كتمان ، ومُصَارحةً غير مخادعة ، وهي جعلت فيه أسدية الأسد ، وهي ألقت في كلامه تلك الشهوة الروحية التي تذاق وتُحَب كالحلاوة في الحلوى

هذا هو العالم الديني ؛ لا بد أن يكون ابن القوات الروحية لا ابن الكتب وحدها ، ولا بد أن يخرج بعمله الى الدنيا لا أن يدخل الدنيا تحت سقف الجامع

وأنا فما ينقضي عجبي من هؤلاء العلماء الذين هم بقايا تتضاءل بجانب الأصل . يبحثون في سنن النبي صلى الله عليه وسلم كيف كان يأكل ويشرب ويلبس ويمشي ويتحدث ، كأنهم من الدنيا في قانون المائدة وآداب الولائم ورسوم المجتمعات . أما تلك الحقيقة الكبرى وهي كيف كان النبي صلى الله عليه وسلم يقاتل ويحارب لهداية الخلق ، وكيف كان يسمو على الدنيا وشهواتها ، وكيف كان بطباعه القوية الصريحة تعديلاً فعالاً في هذه الانسانية للنواميس الجائرة ، وكيف كان يحمل الفقر ليكسر به شرّةَ النواميس الاقتصادية التي تقضي بجعل الأخلاق أثراً من آثار السعة والضيق فتخرج من الغنيّ متعفّفاً ومن الفقير لصاً ، وكيف استطاع صلى الله عليه وسلم بفقره السامي أن يحول معنى الغنى في نفوس أصحابه فيجعله ما استغنى عنه الانسان من شهوات الدنيا لا ما نال منها ؛ أما هذا ونحوه من حقائق النبوة العاملة في تنظيم الحياة فقد أهملوه ، إذ هو لا يوجد في الكتب وشروحها وحواشيها ولكن في الحياة وأثقالها وأكدارها . وبذلك أصبح شيوخنا من الأمة في مواضع لم يضعهم فيها الدين ولكن وضعتهم فيها الوظيفة

ألا ليتهم يكتبون على أبواب الأزهر هذه الحكمة : سئل بعض العرب : بم ساد فلان فيكم ؟ قالوا : احتجنا الى علمه واستغنى عن دنيانا

(سيدي بشر بالاسكندرية) مصطفى صادق الرافعي

من ذكريات عابر سبيل

للأستاذ ابرهيم عبد القادر المازني

كان أحد الأخوان يصحح قول الشاعر : « وسافر ففي الأسفار خمس فوائد » فيقول — بعبارة لا أستطيع أن أرويها بحروفها — إن الفوائد ثلاث فقط : البعد عن المرأة ، والنوم كيفما اتفق ، وتكليم الناس بلا معرفة . فأما البعد عن المرأة — أي الزوجة — فاني لم أعد أدري أهو مزية وخير أم ضرورة وعيب وشر ؟ . ولكن الذي أدريه أني حاولته مرة بلا لفت أومداورة ، ثم عدلت عن التماسه ووطنت النفس على اليأس منه ، ورضيتها على السكون إلى القرب والمودة . وتجاربي في هذا الباب تخولني أن أنصح لمن يريد أن يسافر وحده أن يجازف ويلح على زوجته أن تكون معه ، فاذا أبت كان هذا هو المراد من رب العباد ، وإلا فلن يصيبه إلا ما كان مكتوباً عليه . على أنه يجب أن يكون مفهوماً أن المعول في هذا الامر على أسلوب الحوار وطريقة الكلام . والزواج — كما هو معروف — من مزاياه أنه يكسب الانسان مرونة في التعبير ، وقدرة على الاحتياط ، وبراعة في التحرز ، وسعة في الحيلة . وإني لأذكر أني كنت في سوريا مع أسرتي منذ نحو سنتين ؛ فذهبنا مرة الى بيروت لنشتري أشياء نهديها إلى أهلنا ومعارفنا عند عودتنا ؛ فرأت زوجتي معطفاً من الفرو ثميناً جداً فأعجبها واشتهت أن يكون لها ، ولكني نظرت إلى ثمنه فدار رأسي ، وأيقنت أنا إذا اشتريناه سنضطر إلى الاستجداء والتسول ، فأصابتني فجأة نوبة عصبية حادة لم ترها زوجتي قط من قبل ، ففزعت ودعت أصحاب المحل أن يدلوها على طبيب بارع في الأمراض العصبية ، فقد خيل إليها أن هذا الذي أصابني لا بد أن يكون ضرباً من الصرع أو التشنج أو لا أدري ماذا غير هذا ، فحملوني إلى طبيب فرنسي قالوا لها إنه هو الاخصائي الوحيد هنا ، وإنه من آيات الله ومعجزاته في طب الأمراض العصبية ، فأدخلوني عليه فاتضح له من استجوابي ومما عرفه من تاريخ آبائي وأجدادي من قبلي أن أهلي — في حداثتي — خوفوني مرة بلعب صناعي له فرو كثيف ، وكانت صدمة الفزع الذي انتابني في صغري شديدة جداً ، فأنا من ذلك الحين أضطرب جداً جداً إذا وقعت عيني على الفرو ... فسألته زوجتي التي لم تكن

تعرف هذا الجانب من تاريخ حياتي الحافل بالفاجآت — سألته عن العلاج فقال : « أوه .. لا شيء .. لا داعي للقلق .. ولكن يجب ألا يرى الفرو أبداً .. » ، والحق أقول إنه كان طبيباً بارعاً جداً ، فان مرضي العصبي لم يعاودني بعدها أبداً .. والفضل بعد الطبيب هو بلا شك لزوجتي التي حرصت أعظم الحرص على ألا أرى الفرو ..

وأما النوم كيفما اتفق فهذا أشهد أنه صحيح .. وأذكر بسرور أن قطاراً سافرت فيه مرة كان غاصاً بالركاب . وكانت المسافة طويلة والشقة بعيدة تستنفد الليل كله ولا بد من النوم . ولو كانت الجلسة مريحة لنمت وأنا قاعد ، ولكني كنت كالبائحة في قفة عجوة ، فحرت ماذا أصنع . ثم فتقت الضرورة لي حيلة فنحيت الحقائب عن الشبكة الممدودة لها فوق رؤوسنا ورقدت مكانها ، ونمت أهنأ نوم إلى الصباح ، ولو كنت ضخم الجسم لما تيسر لي ذلك فالحمد لله على الضآلة ..

وأما تكليم الناس على غير معرفة فهذا هو قانون السفر ، ولست تحتاج أن يعرفك أحد بأحد في رحلة ، وما عليك إلا أن تبدأ من تشاء بالكلام كأنما كنت تعرفه من عهد آدم ، ولكن هذا لا يخلو من خطر ؛ فقد تقع على ثقيل أو ثرثار فينغص عليك وقتك ويحرمك كل متعة يمكن أن تفوز بها وأقلها متعة الراحة وخلو البال من المنغصات ؛ ولكثرة ما أصابني من ذلك صرت أكره السفر بالقطار وأوثر السفر بالسيارة ؛ فاذا اضطررت إلى القطار عمدت إلى الحيلة وهي أن أضع حقيبتي في أي مكان حتى يتحرك القطار ، ثم أتركها وأذهب أبحث عن مكان آخر أتوسم في أهله الطرف والايناس ، وهذا يتطلب فراسة صادقة ، والفراسة استعداد ولكنها تكتسب الى حد ما بالتجربة.

ومن الفوائد المجربة في الأسفار أن يستصحب المرء معه كتاباً في فن الطبخ ، ولست أعني أنه قد يحتاج أن يصنع طعامه بيده وإن كان هذا محتملاً ، ولكني أقص ما وقع لي في هذا الباب — أو بعضه على الأصح — فقد كنت مرة في فلسطين وكنت ضيفاً على صديق لي ، فأصابني برد شديد من كثرة التنقل بين البلاد فوق الجبال بالسيارة في الليل وعاودني منغص الكليتين ، فلم يبق بد من الرقاد والحمية وانتظار مشورة الطبيب وإن كنت عارفاً بدائي ودوائه ، ومضى يوم ثان وثالث وطلع الرابع وأنا لا آكل إلا الموصوف من الأطعمة الخفيفة المأمونة ، وهذه لا طعم لها ولا لذة لآكلها ، وكل طعام يفرض على المريض يكون بغيضاً اليه ، فاشتهت نفسي أشياء قالوا لي إنه لا سبيل اليها لأن الطبيب منع أن تقدم إلي ، فاعترضت على هذا وقلت لهم إن الألم قد زال وإن الصحة قد عادت ولله الحمد ، وإني أستطيع الآن أن أفعل ما أشاء وآكل ما أحب ، فقالوا « حتى يراك الطبيب » فقلت إن هذا طعن في ذمتي لا أقبله ولا سيما في أمر يعنيني وحدي ، وأنا على كل حال أدرى من الطبيب بنفسي بل أدرى من أطباء الدنيا جميعاً . وهل كان الطبيب قد أحس بالألم حين جاءني المغص .. هل عرف أني ممغوص إلا مني .. اذن انتهينا .. أنا أنبأته أني مريض ولولا ذلك لما عرف . وأنا أيضاً أنبئه أني شفيت وأنه صار من حقي أن أتمتع بمزايا الصحة .. واذا كان الطبيب قد صدقني في واحدة فيجب حتماً أن تصدقوني في الثانية ، فروحوا هاتوا كذا وكذا من الآكال ، وكيت وكيت من الأشربات ..

فضحكوا وأبوا أن يجيبوني الى ما طلبت قبل أن يأذن لي الطبيب ، فلم يسعني الا أن أذعن للحرمان — فاني في بلد غير بلدي — ولكني طلبت أن يجيئوني بكتاب في فن الطبخ فاستغربوا وسألوني عما أنوي أن أصنع به فلم أعبأ بهم ، فجاؤوني به فقلت لهم : « ألا تستطيعون أن تذهبوا عني الى حيث تشاؤون فحسبي هذا الكتاب وكفى به أنيساً في وحدتي ومسلياً لي في غربتي »

وفتحته في موضع الفهرس وانتقيت الألوان التي أشتهيها وانطلقت أقرأ بنهم . وصدقوني حين أقول إن ريقي كان يجري وإني كنت أنعم بأقوى من لذة الشره المبطان وأنا أقرأ فيه

« كفتة الدجاج — تسيح الزبدة ويضاف الدقيق ثم اللبن بخفة مع استمرار التقليب حتى يصير المزيج في قوام القشدة ، ثم يضاف الملح والبقدونس والفلفل ، ثم تغلى مدة ثلاث دقائق ، ويضاف لحم الدجاج ويخلط جيداً ، ثم يصب هذا فوق طبق مسطح حتى يبرد ويؤخذ من المخلوط بلعقة كبيرة ويوضع في دقيق ويعمل على هيئة كور أو أقراص أو أشكال بيضاوية وتوضع في مكان بارد حتى تتجمد تماماً ، ثم تبل في فتات خبز ، وتغطس في بيض مخفوق مخلوط باللبن ، ثم في فتات الخبز ثانياً وتقلى في سمن ساخن جداً حتى تحمر ثم تنشف على فرخ ورق غير مصقول .. تنبيه — هذه الكمية تصلح أن يعمل منها أربع عشرة قطعة » ولكني نسيت أن أذكر الكميات والمقادير .. لا بأس . فليس هذا كلاماً عن الطبخ .. ولا عجب أن أذوق بالوهم والخيال مثل

لذات الحقيقة فان هذه حياتنا معشر الأدباء .. وما أكثر ما تترك الحقائق ونروح نجري وراء الظلال ! ثم نحاول أن نعزي أنفسنا بأن الحقائق المشتهاة كثيراً ما أثبتت التجربة أنها دون ما كان متوقعا ، وأن الخيال أفسح رحاباً وأوسع آفاقاً ؛ فهو أقدر على امتاعنا . وأن الحقيقة نفسها إنما تكون ممتعة وجيلة بفضل الخيال ، ولولاه لما كان لها طعم ولا فيها متعة . فعمل الخيال لا بد منه للامتاع على كل حال سواء أكنت آكلا بالفعل أم متوهماً أنك تأكل ؛ والفضل والمزية للخيال لا للمادة فانها بمجردها لا شيء ، وإنما تكون شيئاً بما يفيضه عليها الخيال من السحر والفتنة وما يضفيه عليها ويفيضه إليها ويزينها به .

وعلى ذكر فلسطين أقول إني أحب السفر إليها لأنها لا تكلفني إلا أجرة القطار . أما الأكل والنوم والنزهة فعلى الله والاخوان بارك الله فيهم . وقد حدث في العام الماضي أني تعبت من العمل المتوالي فأشاروا علي بالراحة . فقلت اذهب إلى فلسطين . وكان الوقت شتاء والبرد في جبال فلسطين يكون قارساً . فقال لي صديق اذهب الى الأقصر فقلت : فلسطين أفضل ، فاستغرب وبدأ يجادل ، فضاق صدري وقلت له : ياأخي إن الاقصر تحتاج إلى مال كثير ، أما فلسطين فيكفيني أن تكون معي أجرة القطار

ومن الغرائب التي لا أظن أن كثيرين وقع لهم مثلها أني كنت مرة في جزيرة مع إخوان لي ، فقلنا : نصيد سمكا نشويه ونأكل منه في يومنا هذا ، فاخترنا شرماً يضرب الماء فيه ويمعن في البر لأنا قدرنا أن يكثر فيه السمك ، وجئنا بديدان اتخذناها طعاماً وجلسنا ننتظر أن يخدع السمك . فمضت ساعة وأخرى ونحن لا نظفر بشيء ، فنفد صبر أحدنا فتركنا وغاب شيئا ثم عاد بفونوغراف أداره وهو يقول مازحا : « لعل السمك يحب الموسيقى .. من يدري .. أليس له حاسة فنية ؟ » فسرنا أنا وجدنا شيئا نتسلى به في هذه الجلسة المملة ، وإذا بالسنارة التي كانت معي تضطرب وتنجذب إلى الماء ، فشددتها فخرجت سمكة حسنة ، فصحت بصاحبي « أعد ! أعد . . أعني للسمك فما جاء إلا على الموسيقى » وكنت أنا أيضاً أمزح ، ولكنا ما لبثنا أن وجدنا هذا حقيقة . فكان السمك يكثر ويشتد إقباله على الناحية التي تكون فيها إذا أدرنا الفونوغراف ، ويقل ويذهب عنا إذا سكت . ولو كانت معنا مجموعة وافية من الاسطوانات لا استطعت أن أجرب أي الأدوار أحب إلى أي أنواع السمك ، ولعرفت أي الأسماك تحب التانجو وأيها يؤثر الفوكس تروت وهكذا . وقد اتفق منذ بضعة شهور وأنا في العراق أن كنا مدعوين الى الغداء في بيت على نهر دجلة — والعراقيون يسمون كل مسكن على النهر قصراً أو سراي ولو كان كوخاً — وكان بيت صديقنا هذا ضخما فخما وفيه جهاز للراديو ، وكانت الساعة الأولى مساء — وهي بحساب الوقت في مصر الساعة الثانية عشرة — فخطر لي أن أجرب تأثير الموسيقى في السمك ، فرجوت من صديقنا أن يفتح الراديو وأن يسمح لنا بالانحدار الى الحديقة ، وهي متصلة بالنهر ، واتفق أنه كان مغرماً بالصيد ، ولكنا لم نسمع من مصر الا شريطاً مسجلا لأحد المغنين ، ويظهر أن السمك لا يحب الغناء أو لعله لم يعجبه الغناء وان كان يطربنا نحن الآدميين . فقلت أعود في المساء وأرى . غير أني لم أستطع أن أعود إليه قبل الساعة التاسعة مساء — أي الثامنة بحساب الوقت في مصر ، واتفق أن كان الذي يذاع حديثاً فنفرت الأسماك جميعها نفوراً ظاهراً . وفي اعتقادي أن محطة الاذاعة تستطيع أن تساعد على ترقية المصايد المصرية — فتخدم السمك والناس — إذا هي عنيت بأن تدرس طبائع الأسماك وأمزجتها وما يوافقها من ضروب الموسيقى ، وفي وسعها بالاذاعة المتخيرة أن تنظم صيد السمك ، وأن تجعل لكل نوع منه وقتاً معيناً . فاذا كان المراد مثلاً صيد ما يسمى البوري وما عائله أذاعت للصيادين بعض الأغاني الشجية التي تفتر النفس . وإذا كان المطلوب صيد ثعابين الماء أو حياته أسمعتها أغنية « هاتشي بتشي » وهكذا فيكثر المحصول بلا عناء وينتظم الأمر كله . ويعرف الناس ما ذا يستطيعون أن يأكلوا من السمك في كل يوم بمجرد الاطلاع على برنامج الاذاعة ومن غير خوف من أن يغشهم التاجر ويدخل عليهم صنفا باسم صنف آخر

والحجاز وإنجلترا هما — فيما أعرف — البلدان الوحيدان اللذان تستطيع فيهما أن تترك حقائبك أو أشياءك في الطريق فلا تمسها يد غير يدك ولا يسطو عليها سارق . فاما في الحجاز فقد سقطت مني عصاً في الطريق بين جدة ومكة فتعطل السير من الجانبين وانقطع المرور حتى اهتدى الشرطة إلى أني صاحبها فخاطبوني بالتليفون وأنا في الشمسية — قرب مكة — فرجوت منهم أن يردوا العصا اللعينة إلى جدة مخافة أن تركب اثماً آخر فيأخذوني بذنبها . وأما في انجلترا فقد تركت حقائبي ساعة وصلت إلى لندن على الرصيف أمام البيت الذي اختاره صديق لي

لأنزل فيه وذهبت معه — أى مع الصديق — إلى بيته حيث اغتسلت وحلقت ذقنى وشربت القهوة واسترحت ثم عدت الى الحقائب بعد ساعتين فوجدتها فى مكانها كما كانت . وأغرب من ذلك أنى راهنت صديقى هذا أن أقضى يوماً فى لندن لا أتكلم فيه إلا اللغة العربية فخاف أن نتورط فيما لا يحمد واقترح أن نقتصر على السعى للوصول إلى وستمنستر أبى « من غير أن ننطق كلمة بغير لغتنا . فوافقت وتوكلنا على الله وخرجنا من البيت — هو وزوجته وأنا — وكنا نعرف الطريق ولكننا تجاهلناه ، فراقنى منظر رجل واقف بجانب حانة ينتظر على الأرجح وقت السماح ببيع الخمر — فان لذلك وقته المعين حوالى الظهر وفى المساء — فدنوت منه وحييته التحية المصرية — أى برفع يدى ثم مددها الى يده لمصافحته ، وسألته — بالعربية طبعاً — عن وستمنستر ، وتعمدت أن أحرفها تحريفاً شديداً فنطقتها « وستمنصته » ، وأقول الحق ان الرجل فزع واعتدل بعد الميل ونسى الخمر التى يحلم بها وينتظر أن يسعد باحتسائها ؛ فأعدت السؤال رفيقى فلم يفهم طبعاً على الرغم من صدق رغبته فى ذلك ، فلما يئس قال تعال معى ، وقادنى الى الشرطى وهو شىء ضخم جداً وأنا شىء ضئيل أو كما يقول ابن الرومى :

انا من خف واستدق فلا يثـ ـقل أرضاً ولا يسد فضاء

وقال له إن هذا الغريب يدلونى أنه يسأل عن شىء لا أستطيع أن أتبينه ، فمال على العملاق الانجليزى وقال يستحثنى : نعم ؟ فسألته عن « وستمنصته » فجعل يهز رأسه ويستعيدنى ، وأنا أهز له رأسى أيضاً كأنى غير فاهم ، وألح فى السؤال عن « وستمنصته » فأحس أن فى الكلمة شيئاً يمكن أن يهديه إلى مرادى وقال « قل هذا مرة أخرى » ولكنى تغابيت وجعلت أتلفت ، ثم قلقت وخفت ، فقد رأيت صديقى وزوجته قد تركانى وذهبا فوقفا على الرصيف . وليت هذا كل ما حدث ... اذن لما كان فيه بأس ولكنهما كانا يضحكان حتى خيل الى أنهما سيقعان على الأرض . وكان ضحكهما بصوت عال فخفت أن يفطن الى أن الأمر مزاح فيستثقله أو يعده سخرية منه فتسوء العاقبة ، فخففت التحريف فلم يلبث أن فطن الى مرادى فاستوقفنى حتى مرت سيارة أمنيبوس معينة فأمرنى أن أصعد وتبعنى صديقى وأمر الكمسارى أن يأخذ منا الأجر الى وستمنستر وأن يحرص على أن ينزلنا هناك ، فأخرجت نقوداً ومددت بها يدى الى الكمسارى ليأخذ منها ما يشاء لحاجة منى فى دعوى الجهل باللغة الانجليزية . وهكذا كسبت الرهان

وفى غير بوليس لندن لا تجد مثل هذا الصبر والرغبة المخلصة فى المعاونة . وأذكر مثالاً آخر فأقول إن صديقاً لى أعارنى سيارته لأذهب بها من لندن الى اسكتلندا وأتمتع فى طريق بأجمل ريف فى العالم ، وهو ريف انجلترا ، وكانت السيارة كبيرة ضخمة ويكفى أنها من طراز « ديملر » ، فكنت إذا جاء الليل قبل أن أصل إلى بلد ما وخفت أن أضل ، أميل عن الطريق إلى الأرض المعشاب وأتعشى بما أعددت من الطعام ، ثم أنام فى السيارة الى الصباح الباكر ، فاتفق يوماً أن فرغ البنزين وأنا سائر قبل أن أنتبه ، فوقفت مضطراً حيث كنت . ولما كانت السيارة كبيرة وثقيلة فقد عجزت عن تحويلها عن الموضع الذى تشغله من الطريق ، فجلست على سلمها وشرعت أدخن حتى يوفقنى الله إلى شىء ، فمر بى شرطى كان قد فرغ من العمل على ما أخبرنى ، فهو ماض إلى بيته ، فسألنى : هل بالسيارة خال ؟ قلت : لا ، ولكنها أتت على كل ما فى خزانها من الوقود . فقال : انتظر ، ومضى عنى إلى حقل قريب ، وهناك استمار دراجة — بسكليت — وركبها وعاد بها ، وما لبث أن رجع حاملاً معه مقداراً كافياً من البنزين وقمعاً لافراغه فى جوف السيارة ، فشكرته وقدمت له كأساً من الوسكى الذى معى فى السيارة ، وبعد قليل حملت القمع والصفيحة معى وذهبت بهما إلى محل البنزين ، وكان على مسافة ثلاثة أميال ، فرددت الأشياء ودفعت الثمن . ومن الانصاف أن أقول إنك لا تعدم شرطياً غير انجليزى يفعل هذا ، ولكن هذه الروح فى الانجليزى طباع

وأعود إلى فلسطين فأقول إن فى عكة مسجداً كبيراً هو الآن مسجد ومدرسة فى آن معاً ، وقد بناه — على ما أظن — أحمد الجزار باشا الوالى التركى فى ذلك الزمان ، وهو رجل مشهور فلا أحتاج أن أحدثكم عنه ، ولكنى أقول إنى وجدت مكتوباً على باب المسجد من الداخل هذا البيت العجيب فى مدح الجزار باشا :

« ذاك الوزير الشهم أحمد من غدا جزار أعناق العباد كما يجب »

وأظن هذا بيتاً يستحق التدوين ....

وفى بغداد دعانا الشيخ ابن معمر — القائم بأعمال القوضية العربية فى العراق — إلى أكلة على الطريقة البدوية ، فاستحسنا ذلك جداً ، وآثرناها على وليمة أخرى ؛ فلما ذهبنا ألفينا السماط ممدوداً ... وأصف ما رأيت فأقول إن السجادة غطيت بملاءة بيضاء وضع عليها جفنة ضخمة فوقها صينية عظيمة لا أدرى من أين جلبوا بها ، وقد قالوا لى إن عندهم ما هو أكبر

منها بكثير ، وفوق الصينية طشت هائل ملئ أرزا مخلوطاً بالزبيب واللوز والفستق ، وعلى الأرز خروف عظيم مشوى — هذا فى الوسط ، وحول الجفنة وعلى مستدارها أطباق عديدة لا يأخذها الحصر ، فيها أنواع شتى من الطعام ... كالدجاج والخضر والعصيدة والولائق المختلفة ، وهى من دقيق وسمن ولبن ، وقد عرفوا أننا لن نستطيع مجاراتهم ، فأعدوا لنا أطباقا وملاعق وسكاكين وأشواكا ، فجعلنا نحن نأكل على طريقتنا ، أى أن نأخذ ما نشتهى فى أطباقنا . أما هم فأكلوا على الطريقة البدوية الصرف ، وهى أن يتناول الواحد قبضة من الأرز ويطوى عليها أصابعه ويضغطها حتى تصير كالكفتة ، وبعد أن يفتلها على هذا النحو يقذف بها فى فمه . وهذا يبدو هيناً سهلا ، ولكن المصيبة أن الطعام يكون كالنار فيحرق الكف ، فكيف بالفم واللسان ؟ أما اللحم فيجبر منه ما تستطيع أصابعه أن تقطعه أو تمزقه ويرمى به فى فمه ، وما يرمى فى الحقيقة إلا جمراً مضطرماً . وعلى ذكر الجمر أقول إن للعرب — أو على الأصح للبدو — طريقة عجيبة فى علاج الجروح ، وقد جربتها فأنا أتكلم عن خبرة ويقين ، ذلك أن راحتى أصابتها النار ، فجعلت أوحوح وأنفخ فيها ، ولا أدرى ما ذا أصنع لتسكين الألم على الأقل ، فصاح أحد النجديين الذين كانوا حاضرين هناك : — هذا كان فى الحجاز : « ملح ... ملح ... » فجاءوه بقليل من الملح الخشن فدببه بيده الى وقال «خذ قبضة » «فتناولت منه بيدى السليمة وأنا أضحك فى سرى وأقول لعله يظن أن الحروق يفيد فيها السحر» فصاح بى «بيدك المحروقة» ، ففهمت وأخذت قبضة بيدى المحروقة فقال « اطو عليها أصابعك » ففعلت فقال « ابق هكذا » فظللت قابضاً على الملح الخشن دقائق ثم نظر فى وجهى وقال : « استرحت الآن .. زال الألم .. » ففتحت كفى وأنا أبتسم ولا أكاد أصدق ، فما كنت أشعر بأى ألم ولا وأبت أى أثر للحرق ! فما قول الأطباء فى هذا ؟ وليكن رأيهم ما يكون فانى أنا لا أنوى أن أداوى الحروق التى تصيبنى — وعسى ألا يصيبنى شىء — إلا بالملح ...

وفى لبنان أنقذتنى فتاة لا أعرفها من هلاك محقق ، وهذه الفتاة من أعاجيب الخلق ، فان لعينها نظرة تنيم الحية — كما عرفت بالتجربة المرعبة — وأنا قوى النظرة حادها وفى وسعى أن أحدق فى قرص الشمس ، ولكنى لم أستطع أن أحدق فى وجه هذه الفتاة العجيبة . وكنت كلما وقعت عينى على عينها لا أزال أطرف ثم لا أجد بداً من تحويل عينى الى ناحية أخرى . وكنا قد لقيناها فى الصباح ونحن نصعد فى جبل فى رأسه ينبوع أردت أن أرى الموضع الذى يتفجر منه ماؤه . وكانت تحمل جرة فيها من ماء هذه العين ، وكنا نخاف أن نضل ، فسألناها عن الطريق واستحثاها فاستسقيناها وأردت أن أنقدها بضعة قروش فأبت ، وأنبأتها أنى أريد أن أرى مفجر العين فنهتنى عن ذلك ، فسألتها عن السبب فقالت وهى تهز كتفيها : « هيك » ولم تزد ، ولما ودعناها عادت فحذرتنى ، فضحكت وشكرتها وأبيت إلا أن أصعد الى حيث ينبثق الماء ، وصعدت وحدى فقد رأى إخوانى وعورة الطريق فانصرفوا عن مرافقتى ، فوجدت كهفاً على بابه عشب ونبات طويل ورأيت الماء يخرج من الكهف ، فقلت أدخل لأرى فتحيت النبات وإذا بى أرى عينين لامعتين فظيعتين ثابتتين تحدقان فى عينى ، وكانت نظرتهما من القوة بحيث لم أستطع أن أحول وجهى ، وزاد فظاعة النظرة وعمق تأثيرها أن العين لا تطرف والجفون لا تتحرك وأن البريق شديد جداً فى ظلام الغار . وكانت العينان ترتفعان عن الأرض شيئاً فشيئاً وتدنوان منى على مهل وأنا أنظر إليهما ويداى الى جانبى وقد جمدت فى مكانى وشعرت بالخدر فى أعضائى . وكنت قد أدركت أن هذه حية وأنها من النوع الوثاب الذى تتحرك عيناه ولا تطرف جفونه ، ومن هنا عمق تأثير نظرتها ، ولم يخالجنى شك فى أنى مقضى على بالهلاك . وكيف أنجو وأنا مسمر فى مكانى لا أستطيع حراكا ؟ ولو وسعنى أن أتحرك لوثبت الحية على وأنشبت فى أنيابها قبل أن أدور على عقبى . وكانت نفسى تنازعنى أن أصرخ مستنجداً ولكن شفتى كانتا مطبقتين لا تنفرجان . وإذا بالعينين المرعبتين تتراجعان فى الظلام وتهبطان الى الأرض بعد أن كانتا ترتفعان عنها وتزحفان الى ، وأحسست أن نظرتهما تفتر وأن تأثيرها فى نفسى صار أقل وأضأل ، وشعرت بأنى صرت أملك أن أحرك أعضائى بعد طول الجمود ؛ فتلفت فاذا الفتاة التى لقيناها فى الصباح تحدق فى عينى الحية بأقوى من نظرة الحية . ويكفى أنها ردتها بعينها . واختفت الحية فتشهدت وملت على الفتاة لأشكرها بقدر ما كان يسعنى أن أفعل فى مثل هذه الحالة ، فلامتنى على مخالفتها وذكرتنى أنها حذرتنى وقالت إنها أشفقت على من المصير الذى كان لا مفر منه فأدركتنى قبل أن أقضى نحبى فسكت ولم أقل شيئاً .. وماذا أقول ؟ .

ابراهيم عبد القادر المازنى

من (الكتاب الذهبي) قبل أن يطبع

لغة الأحكام والمرافعات

للأستاذ زكي عريبي

دستور (البحث)

أي شيء يراد بهذا العنوان « لغة الأحكام والمرافعات » ؟

الموضوع مطلوب للكتاب الذهبي بمناسبة انقضاء خمسين عاماً على إنشاء المحاكم الأهلية . فهل يجب أن يقتصر على المرافعات القومية كيف كانت لغتها قديماً وكيف تطورت وإلام انتهت وكيف يجب أن تكون ؟

أهذا هو محور البحث ؟ أم إن له مدى أبعد ودائرة أوسع ؟

الحق إن نواحي الموضوع حسبما يوحي عنوانه أكثر من أن تعد أو تحصر . لقد كان للناس محاكم منذ أقدم العصور وفي جميع البلاد المتمدنة ، ولكل عصر من عصور التاريخ ، ولكل بلد من بلاد المعمورة ، مميزاته في تسيير العدالة وما يرتبط بها ، ومنه ما نحن بصدده . ثم إنك إذا تحدثت عن لغة المرافعات استحال عليك أن تقصر بحثك على نحو الكلام وصرفه وباقي صفاته اللغوية ؛ بل أنت تريد إلى جانب هذا أن تنظر في الأحكام والمرافعات من حيث الأسلوب ، واختيار اللفظ ، وترتيب الكلام ، ومراعاة المناسبة ، وملاحظة الصوت والاشارة . ثم إن الموضوع ذو شقين بطبعه ، إذ أن لغتك وأنت جالس للقضاء غيرها وأنت قائم للدفاع . ثم إن الحال في مصر تختلف عنها في أكثر بلاد الدنيا ، فنحن هنا نطبق أحكام قانون نبت في بلاد أجنبية ولم تحتضنه لغتنا إلا منذ قريب . فأكثر المشتغلين بتطبيقه قد درسوا مبادئه ثم تعمقوا في أصوله بغير اللغة التي يكتبون بها أحكامهم أو يعدون بها دفاعهم

أي ناحية من هذه النواحي الكثيرة المتعددة يجب أن تعالج في مقال أكبر الظن أن الحيز المخصص له محدود وسط الأبحاث الهامة القيمة التي سوف ينطوي عليها « الكتاب الذهبي » ؟

لقد فكرنا في الأمر ملياً فانتهينا إلى أنه خير لهذا المقال إذا انفرجت حلقة البحث فيه فجاوزت الحدود المصرية البحتة إلى الإلمام بالحال عند غيرنا من المعاصرين ومن سبقهم من النابهين الذين يمكن أن يعدوا بحق واضعي أسس من الكلام القضائي . فاذا فرغنا من ذلك ، ولن نطيل فيه ، عرضنا لتاريخ لغة القضاء عندنا ماضيها القريب وحاضرها وما ينتظر لها على يد حملة لواء نهضتها الحالية

ولا تنتظر من هذا المقال بحثاً لغوياً عميقاً ؛ فليس لنا بذلك طاقة ولا المحل هنا محله . هذا إلى أن نواحي البحث الأخرى أجدى وأنفع . وسوف نعنى بالتفريق بين لغة المرافعات ولغة الأحكام ، فان لكل منهما مميزات تختص بها ونحب التنبيه عليها ، ولو أن كلا منهما تلقى في مصر صعوبات مشتركة يجب على العائلة القضائية بأسرها التضافر على مغالبتها وتذليلها

ولنبدأ بهذا قبل أن تنفرج قاعدتا الزاوية بحكم اضطرارنا إلى الفصل بين شقي هذا البحث

متاعب اللغة العربية

المتاعب التي يلقاها المترافعون وصائغو الأحكام على السواء في مصر جزء من متاعب لغة قديمة كريمة نامت نومة أهل الكهف زمناً ، ثم أوقظت على حين غفلة لتقف على قدميها دفعة واحدة فتتفهم والناس ما يزال يغالبها ويعقد أجفانها أحوالاً جديدة ليس لها بها عهد ولا سابق معرفة . أوقظت بشدة ودفعت بعنف لضرورة ملحة لتساير وتلاحق في ميدان لا تحده سوى حدود العقل البشري لغات وثيقة الصلة بنهضة العلوم التي رفعت أوروبا إلى مقامها الممتاز الحالي ، وجعلت منها منارة العلم والفلسفة والأدب والتشريع والاختراع . لغات صقلتها قرون متعاقبة عامرة بجهود متواصلة ربطت طارفها بتليدها وهيأتها أداة مرنة صالحة لما يطلب منها في مختلف ميادين النشاط العقلي

وأنت في مصر كاتباً كنت أو أستاذاً في جامعة ، محامياً أو قاضياً ، مهندساً أو طبيباً ، لا تكاد تذكر أمامك اللغة حتى تتجه بفكرك إلى مختلف الصعوبات التي تعانيها إذا طلب منك أن تكتب أو تحاضر في فرعك الخاص . لقد أخذت كما أخذ أفراد هذا الجيل والذي تقدمه العلم عن أوروبا ؛ أخذته سهلاً ميسوراً بلغة أجنبية لقنتها صغيراً في طرازها الأخير فحصلت بها

على أداة دقيقة مطواعة لحاجات العصر قد استوفت دقائقهـا من مسميات وأفعال وتعبيرات لها دلالتها الخاصة المحدودة . درست بهذه الواسطة فى لين وسهولة ، ثم إذا بك وقد انتقلت فجأة بمحصولك العلمى إلى محيط يريد أن يفهم منك مافهمته ويأخذ منك ما أخذته ، وليس سبيل للتفاهم مع هذ المحيط إلا لغة قد يكون معدنها ذهباً ولـكنه ذهب ما يزال تبراً مخلوطاً بأتربة تراكمت منذ أجيال . فأنت مضطر إلى تطهيره من كل عنصر زائف ، ثم عليك بعد ذلك صهره فى بوتقة العصر ثم صقـله ثم ضربه نقوداً من أعيرة وفئات مختلفة . فاذا ما استقام لك هذا كله لزم أن يجرب الناس عملتك هـذه الجديدة وأن يتداولوها زمناً قبل أن تستقر نظاماً مألوفاً معمولاً به

ليس مركز المتكلم أو الـكاتب باللغة العربية إذن سهلاً ميسوراً فى هذا العصر . اللهم إلا أن يقول شـعراً يحتذى فيه المتنبى ، أو يكتب نثراً ينسج فيه على منوال عبد الحميد الـكاتب أو ابن المقفع . أما أن يعرض بقلمه لشىء من مختلف العلوم والفنون الحديثة فهو أعزل إلا من العزم الذى تبعثه الصعاب ، فقير إلا من عناصر الثروة المخبوءة فى لغة عجيدة تتطلب كثيراً من الجهد فى استكشافها ثم مثابرة وصبراً لاقرار ما يكتشف وإحلاله محله من نظام مقبول

ولـكن أيمكن حصر هذه الصعوبات ومعالجتها ؟

ليس فى هذه العجالة متسع للخوض فى موضع قلنا ونكرر إنه خارج اختصاصنا وفوق مقـدورنا . ولـكن ما نراه فى عالم الحقوق يجيز لنا أن نعتقد أنه ليس فى اللغة العربية أدواء أصيلة تمنعها من أن تأخذ مكانها تحت الشمس كلغة عصرية تضرب بسهم فى مختلف العلوم والفنون . فقد سبق لها أن دعيت الى مثل ما تدعى إليه اليوم وهى بعد أقرب الى البداوة منها الى استقرار الحضارة ، فوثبت الى غايتها العلمية وثبة الجواد الـكريم . ودرس العرب حضارة الاغريق وفلسفتهم وطبعهم بالعربية وحلوا محل الرومان فى حمل مشكاة الحضارة قروناً يؤلفون فى كل علم وفن بل ويزيدون فى ثروة العالم العلمية بما استنبطوا من معارف جديدة . فهل تعجز العربية ولها هذه السابقة المجيدة وذلك التراث الباهر أن تصل فجرها الجديد التألق بمسائها الباهر ؟ إن لنا أن نأمل بل لنا أن نطمئن الى غد سعيد أخذاً بالقياس

ولـكن لنعد الى ما كنا فيـه ولنتحدث قليلاً عن صعوبات الحاضر فقد يتعين هنا التنويه باثنتين :

تجاوز القصد

كثيراً ما عيرنا — وأخشى أن نكون قد عيرنا بحق — بأننا نجاوز إذا جلسنا للـكتابة أو قمنا للـكلام الغرض الذى نتوخاه بأحـدهما ، وأن اللغة التى نستعملها فى عصر اللاسلـكى أو الـكهرباء ما تزال تغشاها المحسنات اللفظية وتتمرها الترادفات ويفسدها الحشو ويرهقها استطراد يمكن التخفيف من كثيرمنه . فأغلب الـكتاب إذا ذكر الظلم ألحق به الاستبداد ، وإذا تكلم عن الرحمة أردفها بالشفقة والحنان . وليس الذنب فى هذا على اللغة العربية بل على تقاليد سيئة وجهل بمقتضيات العصر . إن لغتنا موسـيقية بلا مراء ولـكن باعرابها . وهى غنية غاية الغنى بأسمائها وأفعالها ونعوتها . ولـكن هـذه الثروة لم تجمع للزينة فحسب ، ولم تدخر فى بطون المعاجم لـكى يتزن بها الروى وتستقيم القافية ويحسن السجع ، وإنما لتكون منها وسائل لأداء معان مختلفة وان تقاربت . وأول واجب على الـكاتب فى هذا العصر أن يستعمل كل لفظ فيما أعد له من الأصل ؛ فيعرف مثلاً متى ينعت صاحبه بالاقدام ومتى يسميه شجاعاً ومتى يصفه بالجرأة . وبعبارة أخرى نحن أحوج ما نكون اليوم الى فقـه صحيح دقيق للغة العربية نعرف منه متى نستعمل لفظاً معيناً فى معنى معين . وهذا إذا تم استتبع حتماً سير قلم الـكاتب ولسان المتكلم فى سبـل مرسومة وطرق معبدة ، فلا يكتب ولا يقول إلا بقدر حاجة الموضوع دون استطراد يحاول به تمكين المعنى فى نفس القارئ أو سامع يخشى أن يفوته القصد

على أنه من الانصاف أن نقرر هنا أن لغة الجدل الفقهى فى مصر قد قطعت شوطاً بعيداً فيما نتمناه لأسلوب الـكتابة على وجه العموم

وأول مثل يحضرنى أسلوب أستاذى طيب الله ثراه المرحوم أحمد بك لطفى ، فقد كانت لغته مرآة مصقولة لفكره الرائق المرتب : ألفاظ سهلة مختارة ، وجمل على قدر حاجة الـكلام لا أقل ولا أكثر لا تستطيع حذف عبارة منها حتى يختل المعنى وتضيع الفائدة . أنظر إليه يترافع عن الوردانى فى قضية اهتزت لها جوانب القطر كيف يروى وقائعها فى بساطة وسهولة توطئة لبحثه القانونى :

« نزل رئيس الوزارة المصرية يوم الحادث من ديوانه يحيط

به كعادته رجال الحكومة حتى بلغوا به سلم نظارة الحقانية ولم يكد يودع مشيعيه حتى ابتدره هذا الفتى فأفرغ فيه عدة رصاصات طرحته على الأرض يتخبط فى دمه ؛ أطلقها من مسدس كانت تحمله يد لم تخنها قواها ، يقلبه بقلب كأنه قد من الحديد ، فأنفذ حشوها فيه كما ينفذ الجلاد حكم القضاء فى المنكودين ، ولكن مع الأسف لم يكن حول الفقيد يد شهم مخلص مقدام كيد أحمد البحراوى التى أنقذت سعادة حكمدار العاصمة من الرصاص الذى صوب اليه ، ولذلك وجدت رصاصات ذلك الفتى سبيلاً الى جسم رئيس الوزارة »

بل استمع اليه وهو يختتم هذه المرافعة بتوجيه الخطاب الى المتهم كيف يطلق العنان للعاطفة دون أن يختل ميزان أسلوبه السهل الممتنع :

« أما أنت أيها المتهم : فقد هممت بحب بلادك حتى أنساك ذلك الهيام كل شىء حولك . أنساك واجباً مقدساً هو الرأفة بأختك الصغيرة وأمك الحزينة فتركتهما يبكيان هذا الشباب الغض . تركتهما يتقلبان على جمر الغضا . تركتهما يقلبان الطرف حولهما فلا يجدان غير منزل معفر غاب حنه عائله . تركتهما على ألا تعود إليهما وأنت تعلم أنهما لا تطيقان صبراً على فراقك لحظة واحدة فأنت أملهما ورجاؤهما . دفعك حب بلادك الى نسيان هذا الواجب وحجب عنك كل شىء غير وطنك وأمتك وأخيك فلم تعد تفكر فى تلك الوالدة اليائسة وهذه الزهرة اليانعة ولا فيما سينزل بهما من الحزن والشقاء بسبب ما أقدمت عليه . ونسيت كل أملك فى هذه الحياة وقلت إن السعادة فى حب الوطن وخدمة البلاد ، واعتقدت الوسيلة الوحيدة للقيام بهذه الخدمة هى تضحية حياتك : أى أعز شىء لديك ولدى أختك ووالدتك فأقدمت على ما أقدمت راضياً بالموت لا مكرهاً ولا حباً فى الظهور . أقدمت وأنت عالم أن أقل ما يصيبك هو فقدان حريتك ؛ ففى سبيل حرية أمتك بعت حريتك بثمن غال

فاعلم إذن أيها الشاب أنه إذا تشدد معك قضاتك ولا إخالهم إلا راحيك ، فذلك لأنهم خدمة القانون ، وهو هذا السلاح المسلول فوق رأس العدالة والحرية . وإذا لم ينصفوك ولا أظنهم إلا منصفيك ، فقد أنصفك ذلك العالم الذى يرى أنك لم ترتكب ما ارتكبته بنية الأجرام ، ولكن باعتقاد أنك تخدم بلادك . وسواء وافق اعتقادك الحقيقة أو خالفها ، فتلك مسألة سيحكم التاريخ فيها وإن هنالك حقيقة عرفها قضاتك وشهد بها الناس ، وهى أنك لست مجرماً سفاكا للدماء ولا فوضياً من مبادئه القتك ببنى جنسه ولا متعصباً دينياً ، وإنما أنت مغرم ببلادك هائم بوطنك ، فليكن مصيرك أعماق السجن أو جدران المستشفى ، فان صورتك فى البعد والقرب مرسومة على قلوب أهلك وأصدقائك ، وتقبل حكم قضائك باطمئنان ، واذهب إلى مقرك بأمان »

ومثل آخر لأيراد الكلام على قدر المعنى المطلوب تجده فى مذكرات صديق الأستاذ سليمان حافظ المحامى ، وأغلب ظنى أنه يحتذى إمامنا الراحل . قال فى صدر إحدى هذه المذكرات يحدد موضوع البحث ويبين ما سبق من الرأى ، وينتهى إلى غرضه من الاستشهاد بحكم محكمة النقض . وهذا كله فى أسطر معدودة

« بيعان أحدهما من مورث والثانى من وارث عن عين بذاتها . وبيع الوارث أسبق تأجيلا . فأيهما أحق بالتفضيل ؟ وأى المشترين تملك ؟ المشترى من المورث أو المشترى من الوارث ؟ ذلك هو موضوع البحث ومناط الفصل فى هذه الدعوى

قد يقال إن العقد الأسبق تسجيلاً هو العقد الأحق بالتفضيل ؛ غير أن نظرية التفاضل بالتسجيل لا محل لها ما لم يكن البيعان صادرين من مالك واحد . وهنا يحق البحث فيما إذا كان الوارث والمورث شخصاً واحداً بمعنى أن الوارث استمرار لشخص المورث ، أو أن لكليهما شخصية قانونية مستقلة عن الأخرى ؟

وقع الخلاف فيما مضى على هذه المسألة فقال فريق إن شخصية الوارث تكمل شخصية المورث أخذاً بقواعد القانون الفرنسى . وقال فريق آخر إنها مغايرة لشخصية المورث طبقاً للشريعة الاسلامية . وتزاحمت الأحكام بين الرأيين ، وانقسم الفقهاء المصريون إلى شطرين ، حتى طرحت هذه المسألة أمام محكمة النقض وأصدرت فيها حكمها بتاريخ ٣ ديسمبر سنة ١٩٣١ : أخذ بالرأى الثانى ووضع نهاية للخلاف السابق »

ترجم هذا الكلام حرفاً بحرف إلى اللغة الفرنسية أو إلى الانكليزية التى اشتهر أهلها بحب الايجاز فلن يجد فيها الفرنسى أو الانكليزى أثراً لحشو أو تزيد مما يؤخذ على كثيرين من كتابنا »

(يتبع)

زكى هريدى
المحامى أمام محكمة النقض والابرام

خواطر فى السياحة

مجاز الشرق والغرب

للأستاذ محمد عبد الله عنان

السياحة أدب خاص . وربما كان أدب السياحة أقدم أنواع الأدب بعد أدب الأساطير والفروسية . فمنذ القرن الخامس قبل الميلاد نجد هيرودوت أبا التاريخ يجوب أنحاء آسيا الصغرى وفارس والشام ومصر ، ويقدم لنا دراسته ومشاهداته فى أثر ممتع هو الأول من نوعه . وقد جرى أكابر الرحل والرواد فى كل عصر وقطر على تدوين رحلاتهم ومشاهداتهم . ولدينا فى تراثنا العربى طائفة كبيرة من الآثار الهامة التى تعتبر وثائق نفيسة عن أحوال العصور التى كتبت فيها والبلاد والمجتمعات التى تناولتها

وقد كانت السياحة من قبل مغامرة محفوفة بالمشاق والمخاطر ، ولكنها أضحت فى عصرنا هينة ميسورة ، بل غدت متاعاً ونزهة بما مهد لها من وسائل المواصلة السهلة الأمينة فى البر والبحر والهواء ، وتنوعت سبلها ووسائلها ومرغباتها ، وأضحت فى كثير من البلاد التى حبتها الطبيعة بمحاسنها صناعة قومية تنظم لاجتذاب الموسرين والمترفين

ومن الحقائق المعروفة أن السياحة تذكى الخيال وتلهم القلم ؛ ذلك أن السياحة تقدم إلى الكاتب مادة غزيرة من الجديد فى كل شىء : فى الطبيعة والاقليم ، وفى الأشياء والناس ، وفى مختلف نواحى الحياة الاجتماعية ؛ وهى بما تحمل من متاع للنفس والعين والروح تمد الكاتب بذلك الغذاء الروحى الذى يستمد منه صوره ، وتبعث اليه فى معظم الأحيان رغبة ملحة فى التحدث والافضاء بما رأى وشاهد

* * *

وصلنا إلى مرسيليا بعد أن قضينا فى البحر خمسة أيام فى جو هادئ وسير ناعم مريح ، وأرسينا فى الصباح الباكر فى مرفئها الشاسع . ومرسيليا ثغر عظيم ، ولكنها لا تمتاز عن غيرها من الثغور الكبيرة فى مظاهر حياتها ونشاطها ؛ بيد أن ما نلاحظه عادة فى حياة الثغور من تباين فى الناس والمجتمع يبدو فى مرسيليا أقوى وأشد وضوحا . فهنالك يلتقى الشرقيون والغربيون من مختلف الأجناس والأمم ، وتغص بهم شوارعها ومقاهيها وفنادقها ، ولكن هذا المجتمع المتباين يجوز دائماً حياة طائرة غير مستقرة ؛ ذلك أن مرسيليا مجاز فقط بين الشرق والغرب ، تجتازها الجموع مسرعة ، سواء إلى الشرق أو إلى الغرب ، ولا تترك فيها أثراً ، ولا تحمل منها ذكريات ذات شأن

وليس فى مرسيليا ما يجذب السائح المتجول من المشاهد الاجتماعية ويترك فى نفسه أثراً خاصاً سوى حيها الشهير المسمى « الكانبيير La Canebiére » ، فهو قلبها النابض ، يضطرم دائماً بحركة زاخرة مستمرة ، وتجتمع فيه أهم مرافقها التجارية ؛ وهو ثغرها الباسم ، يغص من الجانبين بالمقاهى الأنيقة ، ويغدو بالليل قطعة من الأنوار الساطعة ، ويؤمه المجتمع الأنيق المرح ، وهو أشبه الأحياء بشارع عماد الدين عندنا ، بيد أنه أكثر منه ظرفا وبهاء

ومما يجدر ذكره أن هذا الحى الأنيق « الكانبيير » كان منذ عامين مسرحا لفاجعة دموية مروعة اهتزت لها أوربا ، وكادت تودى بالسلم الأوربى ؛ تلك هى مصرع الملك اسكندر ملك يوجوسلافيا ، ومسيو لوى بارتو وزير الخارجية الفرنسية الذى كان يرافقه فى العربة الملوكية ؛ وقد وقع الحادث على مقربة من ملتقى « الكانبيير » بالميناء القديم ؛ ورأت الحكومة الفرنسية أن تخلد ذكرى تلك الفاجعة المرسيلية باقامة نصب تذكارى إلى جانب المكان الذى وقعت فيه ، وقد سطرت فى رأسه هذه العبارة : « هنا سقط اسكندر ملك يوجوسلافيا ، والرئيس لوى بارتو فى سبيل قضية السلام والحرية ، فى ٩ اكتوبر سنة ١٩٣٤ »

أما عن المشاهد الأثرية فليس فى مرسيليا منها ما يستحق الذكرى سوى أثرين : الأول فى داخلها ، وهو قصر لونشان ، وهو قطعة بديعة من الفن تزين واجهته نافورة ضخمة رائعة الجمال ، وتحيط به حدائق عظيمة ، نصبت فيها تماثيل عديدة ، رأينا منها تمثالاً لمسترال الشاعر البروفنسى الشهير ، وآخر

لشاعر الحب والجمال الفونس دى لامرتين

وأما الأثر الثانى فهو خارج الميناء ، فى جزيرة صخرية صغيرة ، وهو حصن « ايف » (شاتوديف) الشهير

وليس لحصن ايف فى ذاته أية أهمية فنية أو أثرية ، ولكنه يلفت النظر بقواعده وجدرانه المنيعة التى قدت من الصخر الهائل ، والتى يتكسر عليها الموج المزبد

وقد ارتبطت بهذا الحصن الصغير الذى أنشأه فرانسوا الأول فى أوائل القرن السادس عشر ليكون سجناً سياسيا ، ذكريات مروعة ، ما زالت أوكاره المظلمة الضيقة تحمل آثارها ؛ ذلك أن هذه الأوكار السحيقة التى لا يكاد يدخلها شىء من الهواء أو الضوء كانت مثوى لطائفة من أكابر الزعماء والساسة ، منهم « ذو القناع الحديدى » الشهير الذى ما زالت شخصيته لغزا على التاريخ ، والذى يعتقد فولتير أنه أخ غير شرعى للويس الرابع عشر ، قضى بسجنه واخفاء وجهه بقناع دائم حتى لا يعرفه انسان قط . ومنهم « ميرابو » خطيب الثورة الفرنسية ، و « فيليب دورليان » ابن عم لويس السادس عشر ، و « لويس فيليب » الذى تولى الملك فيما بعد ، وغيرهم من الزعماء والأكابر الذين سطرت أسماؤهم جميعاً فوق الغرف التى سجنوا فيها

ومن ذكريات « ايف » المروعة تلك المخادع الشماسة المنخفضة التى تسمى « بمخادع النسيان » Oubliettes والتى كان يزج اليها بعض المغضوب عليهم ، فلا يذكرهم بعد ذلك أحد من أولى الشأن ، وربما تركوا فيها حتى يهلكوا فى غمر الظلام والنسيان

بيد أن لحصن « إيف » ذكرى شهيرة أخرى ، أوحت إلى اسكندر ديما أعظم قصصه وأبدعها ونعنى قصة « الكونت دى مونتى كريستو »

مَن مِن عشاق القصص الرائع لا يعرف « الكونت دى مونتى كريستو » تلك الشخصية العجيبة التى خلقها اسكندر ديما من شخصية أدمون دانتيس سجين شاتوديف ؟ ومن ذا الذى لا تطربه وتشجيه محنة أدمون فى سجنه السحيق ، وقصة اتصاله بالأب فاريا صاحب الكنز العجيب ، ثم فراره من أسره الهائل بعد مخاطرات مروعة ، وحصوله على كنوز جزيرة « مونتى كريستو » ، وظهوره بعد ذلك على مسرح الحوادث فى ثوب تلك الشخصية الخرافية التى يفيض من حولها الذهب والجوهر ؟

فى حصن إيف وكر صغير مظلم قد فى الصخر ، وفيه ثلمة صغيرة تصل بينه وبين مخدع آخر فى مثل روعته وظلامه ؛ ففى أواخر عهد نابليون زج أدمون دانتيس فى المخدع الأول بتهمة مؤامرة ملفقة ؛ وكان جاره فى المخدع الثانى راهب شيخ يدعى الأب فاريا سجن قبله بأعوام طويلة لأسباب مجهولة ؛ ولبث أدمون أعواماً يرسف فى وكره ، وهو يدبر وسائل الفرار حتى وفق إلى حفر ثلمة صغيرة فى جدار كان يظن أنه يفضى إلى فناء السجن أو إلى البحر ، ولكنه ألفاه يفضى إلى مخدع مجاور ، فتعرف بجاره وشريكه فى الأسر ، الأب فاريا ، ووثقت بينهما المحنة أواصر الصداقة ؛ وكان الأب فاريا قد وقف قبل محنته من وثائق كانت فى حوزة بعض الأحبار على سر كنز عظيم من المال والجوهر خبأه الكردينال سبادا فى جزيرة « مونتى كريستو » على مقربة من الشواطىء الايطالية ، فأطلع أدمون على سره حتى إذا فر دونه استطاع الحصول عليه

ثم توفى الأب فاريا فجأة ؛ وكانت العادة أن السجين المتوفى يكفن ويلقى فى البحر ، فدبر أدمون وسيلة عجيبة للفرار خلاصتها أنه بعد أن كُفن الأب فاريا ، وترك فى مخدعه حتى موعد إلقائه ، نفذ أدمون إلى ذلك المخدع من الثلمة الشهيرة ، ووضع نفسه فى الكفن مكان الأب المتوفى ، ووضع الجثة فى مخدعه ؛ وانتظر حتى جاء عمال السجن وحملوه ، وهو مستتر بالكفن وألقوه إلى البحر ظناً أنه هو الأب المتوفى ؛ فاستطاع أن يخرج من كفنه ، وأن يسبح حتى الشاطىء ؛ ونجا بتلك الوسيلة العجيبة ؛ وسافر إلى الجزيرة ، وبحث عن الكنز المنشود حتى عثر به ، وتسمى بالكونت دى مونتى كريستو ، وعاش فى بذخ عجيب ، وهو يعمل للانتقام من أعدائه الذين أوقعوا به حتى أفناهم أو نكبهم جميعاً

تلك هى الحوادث والسير العجيبة التى يثيرها منظر ذينك المخدعين المروعين المتجاورين فى حصن إيف : مخدع أدمون دانتيس وزميله الأب فاريا

ولقـد ذكرنا منظر حصن إيف بحصن أقدم وأروع بمائله فى النشأة والغاية هو حصن سانت أنجلو فى رومة ، وهو معقل هائل يرجع إلى العصور الوسـطى ، وبه مخادع مظلمة مروعة كانت معقلاً لطائفة من الأكابر ، مثل بنفو توتوتشلليني الفنان الشهير ، والعلامة جوردانو برونو ؛ وكان مدى عصور سـجناً رسمياً لديوان التحقيق (التفتيش) الرومانى ، وكان مسرحاً لـكثير من المآسى الدموية وحوادث الفرار الشائقة

***

هذا بعض ما أوحته المناظر والمشاهد المرسيلية إلى الخاطر . ومما يجدر ذكره بهذه المناسبة قصة « البقشيش » (البوربوار) التى قرأنا عنها فى الصحف قبل السفر ، وعلمنا أنها كانت موضع اهتمام خاص من الوزارة الفرنسية الجديدة ؛ فقـد استصدرت وزارة مسيو ليون بلوم من البرلمـان فى أوائل يونيـه تشريعاً يقضى بالغاء « البقشيش » فى جميع فرنسا ، وذلك لما رأته من تغلغل هذا الداء فى جميع المعاملات تغلغلاً يجعله أشبه بضريبة غير رسمية ؛ وقد اعتقدنا حين وصلنا الى مرسيليا أننا تخلصنا من هذا الداء المنغص بفضـل المسيو ليون بلوم ، فاذا نحن واهمون ، وإذا البقشيش لا يزال عماد المعاملة فى كل خطوة ، وكل شىء وكان أول ما لفت نظرنا فى الفندق إعلان جاء فيـه : إنه نظراً لالغاء البقشيش فقـد رأت الادارة أن تضيف إلى جملة الحساب عشرة فى المـائة نظير الخدمة ! فتساءلنا عنـدئذ ما الذى ألغاه القانون الجديد ، وما الذى فعلته وزارة المسيو ليون بلوم ؟

ومما يلاحظ الآن فى فرنسا بنوع خاص أن الجبهة الشعبية التى تؤيد الوزارة الجديدة تلقى تأييـــداً شديداً ، وأن النزعة الديموقراطية التى كانت قد فترت فى العهـد الأخير قد عادت إلى حدتها ؛ وفى ذلك ما يدل على أن الشعب الفرنسى يشعر اليوم شـعوراً قوياً بما يهدد الديموقراطية من الأخطار ، ويزمع أن يتمسك بنظمه الحرة العريقة ، على رغم ما يعتورها أحياناً من أوجه الفساد والضعف ، وأن يدافع عنها ضد تلك النظم الطاغية الهمجية التى تسود اليوم بعض الدول العظمى ، والتى تحاول أن تسود أوربا القديمة كلها

بورنمادر (سفح البرنيه) فى أواخر يوليه — محمد عبد الله عنان

بمناسبة المهرجان الألفى لأبى الطيب فى دمشق

٢ ـ دين المتـــنبي

[تتمة مانشر فى العـــدد الماضى]

للأستاذ سعيد الأفغانى

أنتقل الآن الى الـكلام عن اعتقاد أبى الطيب ، وهو الموضوع الذى زلت فيه أقدام كثيرين ، إما لميل إلى الرجل أو عليه ، وإما لا كتفائهم من البحث بأدنى نظرة ، وتعلقهم مظاهر من القول دون نفاذ الى حقيقته ولا تطلع الى ماحف به من قرائن . والحيطة فى هذا ضرورية لمن يريد استنباط أمور من الشعر العربى وخاصة فى عصر كعصر أبى الطيب فشا فيـه المدح والغلو والتلاعب بالألفاظ ، وأصبح كل مادح على مذهب ممدوحه فى الأغلب ، فان كان شيعياً أشاد الشاعر بسراة الشيعة ورفع من مقالهم ، وان كان يقول بالتناسخ مال الشاعر إليـه ، وان كان معتزلياً أو سنياً فالشاعر معتزلى أو سنى . . وهكذا دواليك

فشت هذه الظاهرة من النفاق فى الناس وكانت أشد ماتكون فى الشعراء ، حتى لقد شهد المعرى عليهم وعلى عصرهم بذلك ؛ وحسب التاريخ شهادة شيخ المعرة ، فقد أيدها بالدليل ، وأرسل فيها قولاً حكيما يعرف رشـده وصوابه كل من أمعن الفكرة ، ولم يكتف بالنظرة . قال بعد أن ذكر تنبؤ أبى الطيب والأبيات تدل على تألهه :

« وإذا رجع إلى الحقائق فنطق اللسان لا ينبىء عن اعتقاد الانسان ، لأن العالم مجبول على الـكذب والنفاق ، ويحتمل أن يظهر الرجل بالقول تديناً وإنما يريد أن يصـل به إلى ثناء أو غرض ؛ ولعله قد ذهب جماعة هم فى الظاهر متعبدون وفيما يظن ملحدون . ومما يلحقنى الشك فى أن دعبل بن على لم يكن له دين ، وكان يتظاهر بالتشيع وإنمـا غرضه التكسب ؛ ولا أرتاب فى أن دعبلاً كان على رأى الحـكمى وطبقته ، والزندقة فيهم فاشـية ومن ديارهم ناشئة . »

وقال فى موضع آخر : « وفى الناس من يتظاهر بالمذهب ولا يعتقده ، يتوصل به إلى الدنيا الفانية ، وكان لهم (يعنى القائلين بالتناسخ) فى المغرب رجل يعرف بابن هانىء وكان من شعرائهم

المجيدين فكان يغلو فى مدح المعز غلواً عظيما حتى قال فيه وقد نزل بموضع يقال له رقّادة :

حل برقّادة السميح حل بها آدم ونوح
حل بها الله ذو المعالى وكل شيء سواه ريح »

فمن الضلال البين إذن أن نلزم أبا الطيب عقيدة ذكرت فى شعره عرضاً ، إلا إذا صحبتها قرائن تقويها وتدل على اعتقاده إياها . وليس من الصواب فى شيء اعتبار الشعر — وحاله ما بيّنا — مصدراً من مصادر التاريخ . وما أجهل المؤرخ إذا حكم على أخلاق سيف الدولة أو كافور بشهادة شعر المتنبي فيهما

بهذا الحذر أخوض الكلام فى اعتقاد المتنبي مع علمى بأنه لم ينظم شيئاً يبين فكرته فى الدين خاصة ، وإنما هى أبيات وقعت فى جملة شعره ، يوسع المؤرخ أن يستأنس بها بعد أن يدرس سيرته

جاء فى خزانة الأدب للبغدادى كلام عن اعتقاد أبى الطيب منقول عن الأصفهانى وهذا نصه :

« وهو (أى أبو الطيب) فى الجملة خبيث الاعتقاد ؛ وكان فى صغره وقع إلى واحد يكنى أبا الفضل بالكوفة من المتفلسفة فهوّسه وأضله كما ضل . وأما ما يدل عليه شعره فتلون ، وقوله :

هون على بصر ما شق منظره فانما يقظات العين كالحلم

مذهب السوفسطائية . وقوله :

تمتع من سهاد أو رقاد ولا تأمل كرى تحت الرجام
فان لثالث الحالين معنى سوى معنى انتباهك والمنام

مذهب التناسخ . وقوله :

نحن بنو الدنيا فما بالنا نعاف مالابد من شربه
فهذه الأرواح من جوه وهذه الأجسام من تربه

مذهب القضائية . وقوله :

فان يكن المهدى من بان هديه
فهذا ، وإلا فالهدى ذا ، فما المهدى ؟ !

مذهب الشيعة (كذا) . وقوله :

تخالف الناس حتى لا اتفاق لهم
إلا على شجب والخلف فى الشجب

فقيل : تخلد نفس المرء باقيـــة
وقيل : تشرك جسم المرء فى العطب

مذهب من يقول بالنفس الناطقة . ويتشعب بعضه إلى قول الحشيشية ، والانسان إذا خلع ربقة الاسلام من عنقه وأسلمه الله عز وجل إلى حوله وقوته وجد فى الضلالات مجالاً واسعاً ، وفى البدع والجهالات مناديح وفسحاً . » اهـ

فأبو الطيب فى رأى هـذا الفاضل : سوفسطائى ، تناسخى قضائى شيعى حشيشى . . مجموعة مذاهب لو فُرقت على مملكة عريضة لخربتها فى يومين ؛ فما الحال اذا اضطلع بها كلها قلب رجل واحد ؟

على أن الشواهد التى استند اليها فى أحكامه هذه لا تحمل ما حمّلها : فالشاهد الثانى (تمتع من سهاد . . البيت) ليس فيه مايصرح بالتناسخ . وقوله : « فان يكن المهدى ... » يخرجه من الشيعية اخراجاً ، لأنه شك فى المهدى أول البيت ، ثم جعل ممدوحه هو المهدى إن كان هناك مهدى ، ثم ختم البيت بهذا الاستفهام التهكمى : ما المهدى !!؟

وإن دل الشاهد الأخير (تخالف الناس . . البيتين) على شيء فعلى تردد أبى الطيب بين القولين وعلى شكه وحيرته بدليل البيت الذى بعدها :

ومن تفكر فى الدنيا ومهجته أقامه الفكر بين العجز والتعب

والذى استفدناه من كل ذلك أن المتنبي وقع فى حداثته الى رجل من المتفلسفة فهوّسه وأضله ، والظاهر أن أثر هذا الأستاذ كان فى أبى الطيب بالغاً ، فقد بقى ضعف العقيدة وعدم الاعتداد بآداب الدين ملازماً أبا الطيب حتى مات

ومهما يكن فقد ألم المتنبي بكثير من النحل الشائعة فى عصره دون اعتقاده بواحدة ما . وذكر بعضها فى شعره منزّلة خير تنزيل : مدح طاهراً العلوى مرة فقال :

اذا علوى لم يكن مثل طاهر فما هو الا حجة للنواصب

والنواصب الخوارج الذين نصبوا العداء لعلى

وذكر المانوية أصحاب الاثنين الزاعمين أن الخير كله من النور وأن الشر كله من الظلام فقال :

وكم لظلام الليل عندك من يد تخبّر أن المانوية تكذب

وعرض لذكر المجوس ومذهبهم فى نكاح الأخوات حين أراد الثناء على حسن امرأة ود أخوها لو كانت تحل له لفرط جمالها فقال :

يا أخت معتنق الفوارس فى الوغى
لأخوك ثَمَّ أرق منك وأرحم
يرنو اليك مع العفاف وعنده أن المجوس تصيب فيما تحكم

ووقع فى شعره ذكر كلمة يصح أن يتعلق بها من يريد جر أبى الطيب الى طائفة ما ، وهى كلمة (الوصىّ) فى قوله :

هو ابن رسول الله وابن وصيه وشبههما شبهت بعد التجارب

وقوله :

وتركت مدحى للوصى تعمداً إذ كان نوراً مستطيلاً شاملاً

وقد فرغت من بيان أن مثل هذا لا يدل على شىء ، ولا ينهض دليلاً ولا بعض دليل ، لجريان عادة الشعراء بمجاراة الممدوح فى عقيدته ورأيه

* * *

وبعد ، فان لم يكن للحكم على دين المتنبى مجال فى شعره ، ففى تلك الشناعات القبيحة التى زجه فيها الغلو فى المدح حتى قل أدبه مع الله ومع رسله وكتبه ، حين زعم لممدوحيه علواً يرفعهم إلى ذلك المستوى . والمدح متى جاوز الواقع فهو محظور فى كل الأديان فكيف إن كان بالباطل وإلى التعالى . دع ما يريق من ماء وجه المادح وما يكسر من عزته ويضيع من كرامته . ومتى كان مسلما من لا حياء له ولا عزة ولا كرامة ؟

وودت والله لو أن شعراءنا هجروا هذا الباب ، باب المديح ، مرة واحدة بمحاسنه ومقابحه ، وشغلوا عنه بغيره من فنون القول الواسعة ، فما هو بالفن الشرف ولا المأسوف عليه إن فقد . وقد حفظ الأدب العربى كثيراً من المبالغات المقوتة والغلو الشنيع ، ولكن ما فى ديوان أبى الطيب وحده هو بكل ما فى مكتبتنا قبحا وشناعة واساءة أدب :

مرة يحاول السجود لممدوحه فلا يكفه الا الزجر :

طلبنا رضاه بترك الذى رضينا له فتركنا السجودا

ومرة يشرك هذا الممدوح بالله فيقول :

ما يرتجى أحد لمكرمة الا الاله وأنت يا بدر

ويقول :

ترى القمر الأرضى والملك الذى له الملك بعد الله والمجد والذكر

ويقول :

اذا بقيت سالما أبا على فالملك لله العزيز ، ثم لى

ويقول :

أنا مبصر وأظن أنى نائم من كان يعلم بالاله فأحلما

ويقول :

تتقاصر الأفهام عن ادراكه مثل الذى الأفلاك فيه والدنا

يعنى الله سبحانه . ويستخف تارة بالمصطلحات الدينية استخفافا ظاهراً فيقول :

يترشفن من فمى رشفات هن فيه أحلى من التوحيد

وقد أرادوا تأويل هذا البيت فكان التكلف والتعسف ظاهرين فى تأويلهم . وقال :

وأعطيت الذى لم يعط خلق عليك صلاة ربك والسلام

وجعل ممدوحه أعظم معجزات النبوة فى قوله :

وأبهر آيات التهامى أنه أبوك وأسمى مالكم من مناقب

وهو لا يرى لممدوحه شبيها أبداً فيقول :

لم يخلق الرحمن مثل محمد أبداً وظنى أنه لا يخلق

ويقول :

ان كان مثلك كان أو هو كائن فبرئت حينئذ من الاسلام

وانظر هذا الغلو الممقوت فى قوله :

لو كان علمك بالاله مقسما فى الناس ما بعث الاله رسولا
لو كان لفظك فيهم ما أنزل ال قرآن والتوراة والانجيلا

وفى قوله :

أو كان صادف رأس عاذر سيفه فى يوم معركة لأعيا عيسى
أو كان لج البحر مثل يمينه ما انشق حتى جاز فيه موسى
يا من نلوذ من الزمان بظله أبداً ونطرد باسمه ابليسا

وهذا الهذيان ما معناه ؟

يأيها الملك المصفى جوهراً من ذات ذى الملكوت أسمى من سما
نور تظاهر فيك لا هو تيه فتكاد تعلم علم ما لن يعلما

وهو حيناً كالمسيح (ما مقامى بأرض نخلة . . . البيت) وحيناً كصالح (أنا فى أمة . . . البيت) ولا يخجل بعد هذا الادعاء أن يضرع الى من سجنه بهذه العبودية :

أمالك رق ومن شأنه هبات اللجين وعتق العبيد

هو من حداثته مهوس مضلل لم يستنر قلبه بنور عقيدة ، ولا شعر صدره ببرد يقين . فلم ينشأ تنشئة دينية فى صباه ، ثم

طرح الى هموم الحيـاة وأتعابها فاضطر الى التكسب بالمدح من صغره ، وشغل عن عبادة الله والتدين بعبادة الناس والمال لهذا السبب ، لا « لأنه صاحب مطامع دنيوية وعقل موكل بالأعمال والوقائع لا بالعقائد والعادات [1] » فليس هناك تنافٍ بين التوكيل بالأعمال والتدين ، ولم يخل المتدينون يوماً عن مآرب ومطامع فى هذه الحياة

وهـذا وليس للمتنبي فلسفة الهية حتى نقول إنه استهان بالدين تفلسفا ؛ وليس لعقله ما لعقل أبى العلاء من مواهب تؤهل صاحبها للنظر والحكم فى المقالات والمذاهب ، بل هو فى هـذا الاستخفاف الذى نم عليه شعره لا يترفع كثيراً عما نرى عليه بعض العامة المستخفين

* * *

كان الى جانب المحن والثورات الداخلية التى منى بها المسلمون فى القرن الرابع غارات أجنبية متواصلة تشن على ثغور المسلمين ؛ وكان أمراء العرب فى تأهب مستمر لرد هـذه الغارات فيظفرون تارة وتارة يغلبون ، وسيف الدولة أحد هؤلاء الأمراء الذين أصلوا الروم بنيرانهم وشغلوا برد غاراتهم

ونزعة الحروب فى الشرق — قديما وحديثا — دينية أبداً ما تغيرت يوما من الأيام ، إلا أن الروم كانوا فى القرن الرابع الهجرى صريحين ، لم يهتدوا بعد الى هذا الطلاء الكاذب الذى أسموه تمدينا بعد عشرة قرون [2]

وشاعرنا أبو الطيب شارك سيف الدولة فى جهاده الدينى فقاتل بجسمه وتعرض للخطر ، وناضل بلسانه . وفى شعره من مواطن الغيرة على الدين وأهله من تسلط الروم ما يحمل المنصف على عدها فى حسناته ، كان يرى هذه الحروب كما كان يراها غيره من أهل زمانه وكما هى فى الواقع — دينية لا قومية ، وهذا هو الفارق بينها وبين حروب سيف الدولة مع خصومه من الامراء . فكانت قصائد أبى الطيب التى يصف فيها هذه الحروب تطفح بالحمية الدينية والنزعة الاسلامية ، فهو يثنى على سيف الدولة الذى هزم الدمستق وأنقذ المسلمين من اكراه الروم لهم على الردة فيقول :

نخرُّوا لخالقهم سـجداً ولو لم تغث سجدوا للصُّلُب

ولم تعجبه هدنتهم مع الروم فقرعهم ومدح سيف الدولة لتدينه فقال :

أرى المسلمين مع الشرك بين فاما لعجز وإما رهب
وأنت مع الله فى جانب قليل الرقاد كثير التعب

ومن هنا تلقيبه سيف الدولة بسيف الرب وسيف الدين فى أقواله :

أيا سيف ربك لا خلقه ويا ذا المكارم لا ذا الشطب
يا سيف دولة دين الله دم أبدا وعش برغم الأعادى عيشة رغدا
يا سيف دولة ذى الجلال ومن له خير الخلائف والأنام سميا
خضعت لنصلك المناصل عنوة وأذل دينـك سائر الأديان

ونعته بنفرته الشديدة من الردة وتعلقه بالاسلام فقال :

كأن سخاءك الاسلام تخشى اذا ما صلت عاقبة ارتداد

وهو رجاء الاسلام والموق من الرحمن ونصير التوحيد :

ولست مليكا هازماً لنظيره ولـكنك التوحيد للشرك هازم
هنيئاً لضرب الهام والمجد والعلا وراجيك والاسلام أنك سالم
ولم لا يقى الرحمن حديك ما وقى وتفليقه هامَ العـدا بك دائم

أبو الطيب يذهب أبعد من هذا : لا يكتفى باستنكار سلطان الروم على قومه ، بل يأنف لهم أن يحكمهم مثل كافور ، وإن كان مسلماً مثلهم ، ولا يرضيه سكوت الناس عليه ؛ ويغضبه أن يعظموه فيصرخ فيهم هذه الصرخة ويعرض بأم كافور :

تُوَبيّـة لم تدر أن بنيها الـ ـتوبى دون الله يعبد فى مصر

ثم يرسلها ملعلعة تتنزى بالألم والحسرة والأسف على ما صار اليه الاسلام فيقول :

سادات كل أناس من نفوسهم وسادة المسلمين الأعبد القزم

رحم الله أبا الطيب ! ما تراه كان قائلاً لو بُعث اليوم فشاهد ما نشاهد ! إذن لرأى هؤلاء الأعبد القزم شرفاء قياساً إلى غيرهم ، بل أنبياء

* * *

لصاحبنا ازاء ما تقدم من أبيات يأباها الدين والعقل ، أبيات أخرى هى من صميم الدين وروحه ، يتقاضانى الانصاف ذكر شىء منها كما ذكرت تلك ، فقد نص فى بعضها على أنه لا يخضع لمخلوق أبداً

تغرب لا مستعظماً غير نفسه ولا قابلاً إلا لخالقـــه حكما

(١) كلمة الأستاذ العقاد فى كتابه مطالعات ص ١٢١

(٢) ومع هذا فقد قال الجنرال اللنبي حين دخل القدس فاتحاً : « اليوم انتهت الحروب الصليبية » وناهيك بها صراحة فاضحة

وقد جعله أبو العلاء بهذا البيت من المتألهين . ويعترف بتصرف الله المطلق فى الكون :

ألا انما كانت وفاة محمد دليلاً على أن ليس لله غالب

وأن الله هو اللحوظ فى كل فعل وحركة :

فأنت حسام الملك والله ضارب وأنت لواء الدين والله عاقد

وهذا البيت ينظر إلى قول الله مخاطباً نبيه : « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » وهو يجعل شكر الله واجباً فى دوام النعمة حين قال فى ممدوحه :

مقلداً فوق شكر الله ذا شطب لا تستدام بأمضى منهما النعم

وكما أبى قبول الحكم من غير خالقه أبى الشكوى إلى الناس وهذا غاية ما يأخذ به الموحد نفسه :

ولا تَشْكُ الى خلق فتشمته شكوى الجريح الى الغربان والرخم (١)

ولنذكر أن صاحب دمشق - وكان يهودياً يعرف بابن ملك حمل المتنبى على مدحه فأبى أنفة ، وكذلك فعل مع ابن كيغلغ وكان روميا

هذا ما رأيت فى شعر أبى الطيب من تعلق بالدين سلباً أو إيجاباً ، ذكرته على حقه بحرية وصراحة . أما سيرته العملية فقد ذكروا له أخلاقاً يحمده عليها الدين وهى عفة المذهب والصدق . وقد كان المتنبى — كما ذكروا — لم يؤثر عنه فسوق قط . وقوله

إنى على شغفى بما فى خمرها لأعف عما فى سراويلاتها .. الخ صحيح كل الصحة فى الدلالة على عفته ، فقد أبدته سيرته طول حياته . وكذلك فى التزامه جانب الصدق :

ومن هوى الصدق فى نفسى وعادته رغبت عن شعر فى الرأس مكذوب

ثم ذكروا له خلالاً ثلاثاً دلت على أن الرجل لم يأخذ نفسه بشىء من التكاليف الشرعية ، أى لم يكن مسلماً بالعمل . قال أبو حمزة البصرى :

« بلوت من أبى الطيب ثلاث خلال محمودة : هى أنه ما كذب ولا زنى ولا لاط ، وبلوت منه ثلاث خلال مذمومة وهى أنه ما صام ولا صلى ولا قرأ القرآن . »

فاذا أضفت الى ذلك ما تعرف فى سيرته من البخل والتعاظم وسلاطة اللسان ، وأن له فى القذف فحشاً ما عرف أقبح منه ولا أدنس ، استقام لك من كل ما قدمت رأى لعله أن يكون أقرب الآراء من صواب

وأنا لست أقول فيه ما قالوا من أنه : « خبيث الاعتقاد قد خلع ربقة الاسلام » ولا أتكلف له التأويل والمحال ، فقد قدمت الاشارة إلى بطلان المذهبين معاً

ولكنى ألاحظ أنه شاعر ، والشاعر كثيراً ما يبيع دينه بدنيا غيره ، فان خرج على الاسلام فى غلوه فما قصد إلى هذا الخروج قصداً ، وإنما أراد الزلفى عند الممدوح ، فأداه الغلو إلى الخروج

وليس من الحق أن نحكم على آخرة رجل بنزوة كانت منه فى الحداثة ، أو بحماقات صدرت فى فترات من حياته . ومن ذا زعم أن أبا الطيب كان يعتقدها اعتقادا حتى نجعله بها صاحب مذهب فى الدين ، وقد علمنا أن عقله لم يفرغ لهذا قط ؛ فمن سره أن يجر النوابغ المشهورين إلى طائفة بالسلاسل والأغلال ، يكثر بهم سوادها فما أرانى مضطراً إلى شىء من هذا ، وقد فرغ أهل البصر من هلهلة هذه الطريقة التى سلكها بعض المؤلفين الحديثين فى كتب التراجم جهلا وعصبية ، فما هى إلى علم ولا إلى أمانة . والحكم على دين رجل أبعد منالا من أن يكتفى فيه بورود اسم هذا الدين فى كلامه ، فما بالك إن كان ذكره له مجاراة أو حكاية أو ردا أو شتيمة ؟

وقد ذكر المتنبى فى شعره هذه الديانات : المانوية ، المجوس ، اليهود ، النصارى ... الخ أفيستقيم فى هذا الزمان أن ينهض منتسب إلى العلم فيعد أبا الطيب مانوياً أو مجوسياً ؟

إن العلم والأدب أمانة ، فلينظر قارئ فى كتاب ما ترك مؤلفه من عقله وأمانته وما أخذ

أما أنا فأستطيع الآن بعد ما قدمت من بحث تحريت فيه بجهدى ، ودعمته بما رأيت من برهان أن أرسل كلمتى مطمئناً فى دين أبى الطيب فأقول :

آمن لسانه وتخلف عمله ، ولم يكن الدين همه يوما من الأيام

(دمشق) سعيد الأفغانى

(١) نسب للمتنبى هذان البيتان :

أبين مفتقر إليك نظرتنى فأهنتنى وفقدتنى من حالتى
لست اللوم ، أنا اللوم لأننى أنزلت آمالى بغير الخالق

وهما وإن كانا فى الجملة والمذهب يؤيدان بيت المتنبى المذكور — بعيدان — فى رأيى — عن روحه ، فلم يألف أبو الطيب الاعتراف باهانة نفسه وفقدها من حالتى

فى النقـــــد أيضاً

بقلم محمد مظهر الجلاد

إلى الأساتذة الأكابر :

كان للفصول التى كتبتموها فى النقد أثر كبير فى كشف غوامض العلل التى أصابت الأدب والنقد معاً ، وما أرانى تكلفت الصبر فى شيء كما تكلفته فى انتظار « الرسالة » حين كتابة هذه الفصول . وإنى لها لعلى انتظار واشتياق

كتب الأستاذ الزيات مقالين فى « الرسالة » افتتح بأحدهما باب النقد واختتمه بالآخر ، وكانت بينهما معركة ، وكانت بينهما نفحة من نفحات النصر الجميل تخطَّر لها الأدب ، وانتعش بها النقـد ، والتذت بها الفـكرة ؛ حتى إذا تمتع الطرف ، وأرهف الحس وثارت العاطفة علا هُتاف الالهام يقول : ألا إن لله فى أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها

كتب الأستاذ أحمد أمين مقالين ألقى فيهما مسئولية النقد على الشيوخ ردَّ فى غضونهما الدكتور طه حسين على الأستاذ الأمين ؛ ثم كتب الدكتور هيكل فصلاً رمى فيه تبعة النقد على الشباب ، ثم ختم الأستاذ الزيات مقاله قائلاً : « الحق إن ركود الأدب وفوضى النقد لا يرجعان إلى الشيب ولا إلى الشباب ، وإنما يرجعان إلى تهريج الصحف وكسل الكتاب »

وأنا لا أجد بأساً من التعليق المجمل على ما كتبه السادة الأدباء فى هذا الموضوع ، لا لأنى سأزيد على ما كتبوه شيئاً لم يكن ، وإنما هى كلمة الأستاذ الزيات أثارت فى نفسى شيئاً حملنى على الكتابة ، ووجدتنى مضطراً إلى التعبير عن هذه الثورة ، وألجأتنى إلى الخجل والاستحياء من أساتذتى الكرام ، حيث كتبت فيما يكتبون ، فى حين أن البون شاسع بينى وبينهم ؛ غير أنى لم أنس أيضاً أن للتلميذ حقاً كما أن للأستاذ حقاً ، ولكل منـا مقام

أبدع الأستاذ الأمين فيما كتب ؛ غير أنى أعتقد أن علة النقد ترجع إلى أساسين اثنين : أحدهما العلم ، وثانيهما الخُلُق . فأجاد هو فى شرح أكثر الأول ، ولا أدرى علامَ أرجأ الثانى . وهو أحد الأساسين ، وهو الذى يقول فيه الأستاذ الزيات : إنه سطوة الهوى ، وفتنة الغرور ، وغلبة العاطفة

إن الأدب والذوق والعلم عدة النقد الكافية ، وإن هذا الأدب والذوق والعلم ليثقف العقول ويرهف المشاعر ، وإن هذه العقول وهـذه المشاعر لتبدع النقد ، وتجيد التمحيص ، وتعرف موضع الداء والدواء . وبقى أن نعرف أن هذه الملكة الأدبية الصافية قد تتحوّل عنـد النقد أحياناً أو أبداً إلى ملكة نفسية تتصرف بالقلم لا كما يشاء الأدب والفن ، بل كما يشاء الغرور وكما يريد الهوى

ليت شعرى أى رجل من الرجال يتقلد مفاتيح النجاة من حق فاضح ، وحكم صحيح ، ونقـد نزيه ، ثم لا يفر من خصمه بأى أساليب الحيلة شاء ، وبأى ضروب القول أراد ، إذا لم يؤت سَعَة فى الصدر وقوة فى الخُلق ترغمه على قبول الحق مهما يكن مُرّاً ؛ ولا سيما من أوتى قوة الجدل المنطق والحوار اللانهائى

أين ذلك الخُلق الذى يقول : أخطأ عمر وأصابت امرأة . هناك ناس يخبطون فى النقد خبط عشواء ، فلا يحملون فى نفوسهم غير الضغينة ، ولا تعرف ألسنتهم غير البذاء . وكم يتعجرف هؤلاء وكم يجدون لأنفسهم من مكانة ، ولأدبهم من شعر وفن وجمال ، ولنقدهم الصحة والدقة والذوق ؛ فهم يتطاولون ليجثموا فوق القمر ، ويجلسوا على النجم ، ليكون للناس منهم نصيب وافر وحظ عريض

وهناك من ينقد عن بصيرة وعلم ، فهو يفتش عن علل العيب فى خصمه ، لا لينقده ويرشده إلى الصواب ، بل ليحط من قدره وينال من كرامته . فأنت تجد فى نقده الصحة والذوق والسمو ، ولكنك لا تجد طهر السريرة ونزاهة النقد . على أن هناك أساتذة أدباء وهبهم الله العلم والذوق والخُلق الجميل يكتبون بلغة الناس وروح السماء ، لا تكاد تقرأ لهم شيئاً حتى تخال نفسك طائراً ملائكياً يسبح فى عالم الجمال ، فيه الملائكة والروح تتنزل باذن الله على من يشاء من عباده

لا بد من الأخلاق فى هذا الموضوع إذن ، وإنها لمن أكبر ضروراته وأعظم مميزاته ؛ وأنا أعرف أن النقد شىء والخلق شىء آخر ، ولكن شدة الصلة بينهما وقرب الوشيجة دعوانى لربط أحدهما بالآخر ، وما أرى أن أحداً ينكر علىّ هذا

وأرى أيضاً أن فى النقد الحاقد المشوه هدماً لكيان أمة برمتها وسبباً من أسباب الأحن الفتاكة التى تكبر وتكبر حتى لكأنها دولة فيها الجند والأسطول والمدفع والقاذف لا تهدأ إلا لتثور ، ولا تخمد إلا لتستقر ، وهكذا دواليك .

لعل قائلاً يقول : إن النقد اللاذع يبعث على النضج الأدبى السريع إذ تشحذ الأذهان ، وتبرى الأقلام ، وتلتهب الغيرة ، ولن يتاح هذا الانتاج السريع بهدوء النفس وفتور المشاعر ، فنقول له : إن ما يخسره الأدباء من الصلة الأدبية بينهم وما يكون من اجتماعاتهم وروابطهم حيث تعطى عصارة الرأى وناضج الأدب وصرف الجمال ، أكبر من الربح السريع فيه معانى التجزئة ، وحقيقة التشويه ، وذل الأمة

النقد النزيه وحده كاف لأن يكون أثراً فعالاً وقوة رئيضة لايقاد الشعور وتحفيز الهمة . ولم لا وقد يجد المنقود فى النقد النزيه أخاً يجادله فى حب ، ويناظره فى لين ، ويكاتبه فى ابتسام وسرور . وكم يجد لمزائه من سلوة حينما يجد ناقده النزيه يكشف له عن عيبه فى رقة وعن خطئه فى إشفاق . ولا تنس أن ذكر المحاسن فى النقد والتماس التشجيع فى امتداح الجودة وشكر الجميل وسيلة كبرى فى نشر الثقافة ورقى الأدب وانتصار النقد

قد يحجم أكثر التأديين عن النقد ويركنون إلى الدعة والراحة إذا ما رأوا كاتباً من الكتاب يحترق فى لهيب النقد الغاضب راضين من الغنيمة بالاياب ، وتلك هزيمة منكرة تشنها الفوضى الأخلاقية على العقل والعلم والأدب والنقد جميعاً ، كما أنى لا أقصد الافراط فى التلطف والشكر على قبيح يشوه حقيقة النقد من أجل رعاية الخلق والأخلاق . لا . وإنما أريد الاعتدال والنصفة ، حيث يلتقى كلا الخصمين على شاطئ الأخاء يقودهم الأدب إلى حيث اللقاء الدائم والصفاء المستمر

محمد مظهر البدر

شعراء الموسم فى الميزان

نقد وتحليل

للأديب عباس حسان خضر

— ٤ —

ميلاد الرسول

كانت هذه القصيدة من أقوى العمد التى قام عليها نجاح الموسم ، وقد عرف الأستاذ محمد الأسمر كيف يحكم فيها الصلة بين وجدانه ووجدان المستمعين باختيار الموضوع ، وحسن الالقاء ، وبراعة التأدية . وإذا كانت الطبيعة الشعرية خصبة ، وكان التعبير عما تنتجه ، وتوصيل هذا التعبير إلى (مستهلكى) الشعر جيدين ، فقد بلغ الشاعر ما يرمى اليه من غرض الاجادة . فما حظ هذه القصيدة من ذلك ؟ اليك منها فى وصف يوم ميلاد الرسول :

يوم أغر كفاك منه أنه ... يوم كأن الدهر فيه تجمعا
ويكاد غار كل يوم قبله ... يثنى اليه جيده متطلعا
فلو استطاع لكر من أحقابه ... وثبا على هام السنين ليرجعا
ويكاد مقبل كل يوم بعده ... ينسل من خلف الزمان ليسرعا
فلو استطاع لجاء قبل أوانه ... وانساب يخترق السنين وأتلعا
تتنافس الأيام فى الشرف الذى ... ملأ الوجود فلم يغادر أصبعا

فانظر كيف يمثل الزمان فى ركب يبرز فى وسطه يوم الميلاد كأنما هو المقصود من الدهر كله ، فالأيام قبله تتطلع اليه وتود الرجوع اليه ، والأيام المقبلة توشك أن تفلت من نظام الركب لتسرع اليه ، وكلها تتنافس لنيل شرف الميلاد النبوى ، ويجمع هذه المعانى قوله : « كأن الدهر فيه تجمعا » فهذا التعبير فى تفرعه إلى تلك المعانى يشبه مقذوف النور الذى ينبعث فى الجو على شكل شرارة مقتضبة ، فلا يلبث أن ينبسط متفرعا إلى شجرات أوطائرات أو غير ذلك ، وهكذا يكون فى المولد النبوى !

فهذه الطبيعة التى تنتج هذا الخيال ، هى — ولا شك — صالحة لانتاج الشعر الذى تتم جودته بمثل ذلك التبيين الذى يزاوله

ومن أبيات القصيدة التى لا تصدر إلا عن طبيعة فنية قوله :

والحق أخفى ما يكون مجردا ... وتراه أوضح ما يكون مدرعا

بعد أن تنظر إلى التركيب من حيث تأديته للمعنى التأدية

العادية ، قف عند كلمة « أوضح » فهي بعد أن تعبر عن وضوح الحق والانصياع له إذا كانت تلابسه القوة ، تومئ إيماءة لطيفة إلى وضوح الحق ملبساً بالدروع الملتمعة

وقوله معبراً عن زوال ملك فارس والروم بالفتح الاسلامي :

من لم تزعزعه العواصف قبلها بعثت له بنسيمها فتزعزعا

فقد صور الشاعر روح الشريعة السمحة وما تشمله من لطف ورقة بالنسيم ، ولكنه أوضح أن النسيم الاسلامي كان قوياً في لطفه ورقته قوة زعزعت ما تقاصرت عنه عاتية العواصف

والأستاذ الأسمر يسوق المعاني في الألفاظ ، فتطربك من ذلك وحدة مركبة ، وهذا قوله في مطلع القصيدة :

فجر أطل على الوجود فأطلعا شمسين شمس سنا وشمس هدى معا
ظلت مطالع كل شمس لا ترى من بعده شيئاً كمكة موضعا
قبس من الرحمن لاح فلم يدع لألاؤه فوق البسيطة موضعا

فليس من الميسور الفصل بين جمال هذه المعاني وجمال قوالبها

ومن الغريب أن القصيدة مع تجاوز معظمها أصل الموضوع وهو ميلاد الرسول قد جاءت وحدة منسجمة ، فقد تخلص الشاعر — بعد نحو ثلث القصيدة — من القول في ميلاد الرسول إلى الافاضة في الدعوة الاسلامية ومدح الرسول : فذلك الخير الذي أصاب الناس بميلاده ، والسنا الذي أزاح الله به الظلمات قد

وافى وليل الجاهلية مطبق فانجاب عن جنباتها وتقشعا

ومن هنا ينقطع الحديث عن الميلاد الذي هو موضوع القصيدة ، ويشغل معظمها مدح الرسول والاشادة بدعوته ؛ ولكن ما غاية الميلاد ؟ أليست وجود هذا الرسول العظيم ، وأثر دعوته للناس إلى الهدى ؟ قد يقال هذا ، وقد تكون عليه مسحة من الوجاهة ، ولكن كان ينبغي أن يكون أكثر القصيدة في أصل الموضوع . ولن يخدعنا الشاعر عن ذلك بصنعته في جمع الشتات والتأليف بين الأجزاء

وفي القصيدة كثير من المعاني المطروقة التي اعتورها جمهور الشعراء قديماً وحديثاً ، حتى أصبحت (منافع عامة) كقوله :

نادى إلى الحسنى فلما أعرضوا واستكبروا شرع الرماح فأسمعا
والحق أعزل لا يروع فان بدا مستلئماً لاقى الطغاة فروعا

وقوله :

بعض الأنام إذا رأى نور الهدى عرف الطريق ، ولم يضل الهيعا
ومن البرية معشر لا ينتهي عن غيه حتى يخاف ويفزعا

التجرير والتقليد

الأستاذ محمد الهراوي على رأس المحافظين من الشعراء ، فهو يسخر من دعوة التجديد ، ويعلن هذه السخرية في هذه القصيدة . على أنه يجب أن ينصف نفسه ، فما أظنه يكره التجديد في ذاته ، وإن كان يحمل على أدعياء الجديد الذين يستترون سخفهم بدعوى التجديد . . ولما كان هؤلاء قد ملأوا الجو بصيحاتهم الجوفاء ، فقد أصبح التجديد في نظر الشعراء كلمة مقرونة بذلك السخف ، وأصبح السخف من مدلولات التجديد ! والحق أن التجديد مظلوم بين هؤلاء وهؤلاء . ويشير الأستاذ الهراوي إلى ريبته في الجديد بقوله :

يا قادة الرأي الجديد تحيـــة لو صح زعمكمو ، وألف سلام

فهو يرتاب في زعمهم أنهم مجددون ، وأنهم قادة الرأي الجديد . وهو في القصيدة كلها يفند دعاواهم في التجديد ، ويردها إلى تقليد الغربيين : فالقصص ليست جديدة ، فأسواق العرب مزدحمة بها ، على أن مهد القصة هو الشرق ، وهذه قصص ألف ليلة وليلة والشهنامة قد نشأت فيه ، وهذا القرآن زاخر بالقصص السامية

وملاحم اليونان أهي جديدة وحديثها من قبل ألفي عام
أتعيد ثرثرة الحديث مجدداً ونرده لخرافة الأصـــنام

ثم جعل الأستاذ الهراوي يتهكم على تعبيرات « المجددين » بقوله :

فتقول : « في إثنين يوم » مثلهم لا « في مدى يومين في الأيام »
وتقول : « مثل الثلج غرة وجهه » لا « مثل وجه البدر حين تمام »
وتقول : « مثل الأرز مبسم ثغرها » لا « الدر في نسق وحسن نظام »
وتقول : « أوكازيون » يا من يشترى وتقول : هذا السعر « للركلام »

وفي هـذه الأبيات ركاكة مرجعها العبارات التي يحكيها عن « المجددين » فالاسفاف في الأصل ، وناقل الاسفاف ليس بعسف ، والشاعر يهجو بهذه الأبيات صنيع المجددين ؛ ويقولون : « إذا هجوت فأضحك » فهو ينحو فيها منحى الفكاهة ، وهذا المنحى يقتضي التبذل في التعبير . واستمع إلى ما قاله بعد ذلك ، وقد جد الجد :

أنكرتمو الأعلام في أوطانكم في ذكر ما للعرب من أعلام
فكأنما الغربي في آدابه هو وحده المختص بالأحكام
ما ذا من التجديد في تقليدهم غير الرجوع لأظلم الأيام
لم يضربوا مثلاً لنا من صنعهم بكراً ولا جاءوا برميـة رام
لقطوا فتات الأجنبي وأقبلوا يتلظون لنا بشبه طعام

ورموا بما التقطوا كأنا عندهم قطط الموائد تكتفى بعظام

هذا هو (الكلام الجد) يقوله (زعيم المحافظين)

إلى هنا ينتهى شأن الشاعر مع المجددين ، ويبتدىء مع النقاد شأناً آخر ، فيقول :

مالى وللنقـاد أسمع رأيهم ما قادنى عقـلى الى الأوهام
لى خطة وحدى وملء عقيدتى رأيى وعقلى رائدى وإمامى
وطنى هو الملى علىّ قصائدى جددا وشعرى لوحة الرسام

فكيف لا يسمع رأى النقاد ؟ وهل خطة الشاعر ورأيه وعقله وإملاء وطنه عليه قصائده — هل هذه الأشياء تمنع من سماع رأى النقاد ؟

وطنى

قبل أن أسطر هذه الكلمات محوت كلمات وسطوراً ، إذ أننى عند ما شرعت أكتب عن هذه القصيدة شككت فى كل كلمة كتبتها ، فأنا أريد فيما أكتبه عن هذه القصيدة خاصة أن أطبق المفصل ، كما يقولون ، فليس ينبغى إلا أن يقال عنها مثل ما قيل فيها .. ولعل هذا إيحاء من القصيدة وما صنعه فيها الأستاذ محمد الهياوى من الدقة والتجويد ، وليس هـذا كل ما صنعه ، وليس هو بحسب الذى أوحى الى الهابة ، إن الذى أوحى الى الهابة هو ما أوحىَ الى الشاعر من المعانى السامية والروائع الوطنية التى ضمنها القصيدة ، والتى ألهمته إياها مصر ، كما قال :

أبدا يلجّ بك الحنيـ ـن لذات ملهمة الحنين

فجعل يبعث إيحاءه الى النفوس فتمتلىء بما امتلأت به نفسه وتتأثر بما تأثرت به . وها هوذا يقول فيما تعانيه مصر من سالبى حريتها :

قـل للذى بر اليميـ ـن على يديه ردى اليمين
أضنى المثين من الوعو د الخلف أو فوق المثين
أنت الذى أفنى السجيـ ـن بحسن منقلب السجين
وضع القيود وقال ما أشجى رنينك من رنين
فاشرب على شدو الحديـ ـد حلاوة الرق الحنون
واغنم رخاء الطوق جا ور حبله حبل الوتين

فترى فى هذا الشعر آلام مصر مصورة تصويراً دقيقاً ، تنتظمه الروح المصرية الصميمة ، تكسو كل ذلك أردية عربية متينة . وقوله : « فاشرب على شدو الحديد . . الخ » من الشعر المرقص وقد ظهر لى مأخذ فى الأبيات الآتية ، وهو من المآخذ التى لا تظهر إلا فى الشعر الجيد ، قال يخاطب مصر :

أجريت فيض مـدامع من نيلك الباكى الحزين
حمراء حيناً كالدم الـ ـجارى على الداء الكمين
فاذا تطامن جأشك اذ هملت كصافية الشؤون

فهو يقول إن المدامع تكون حمراء فى حين ، ولم يبين هذا الحين ، ثم يقول إذا تطامن الجاش انهملت الدموع صافية ، فكيف تنهمل الدموع فى حالة سكون الجاش ؟ إن الدموع لا تكون إلا فى حالة الاضطراب وجيشان العاطفة ، أما احمرارها وصفاؤها فيكونان على درجتين من درجات الاضطراب ؛ على أن الصفاء لا يقابل الاحمرار ولا يقاسمه ، فقد يكون الأحمر صافياً والصافى أحمر

أنت شاعر

وهذا شاعر يئن من هجر حبيبته ، وهو الأستاذ محمد عزيز رفعت ، والقصيدة كلها مبنية من الكلمات والعبارات المبتذلة التى كثر استعمالها فى الشكوى من فعل الجوى وتبريح الصبابة ، يقول :

أشكو هوى بين الجوانح شيفنى فى هجمتى سقماً وفى يقظاتى

وتظهر فى بعض أجزائها محاولة الاجادة ، وتبدو فى قليل من أبياتها مخايل الشعر كقوله :

عبثاً شكوت فيا لصب مغرم لم يجن غير اليأس من ثمرات

« واليأس إحدى الراحتين » لو اننى
لما يئست ذهلت عن صبواتى

وفى القصيدة ركاكة فى الأسلوب ، وتكلف فى النظم ، وأخطاء فى بعض المعانى والألفاظ : قال :

واسود وجه الرأى لا لى حيلة لنوال عطفك أو لكبت وشاة

النوال : العطاء ، وهو يريد النيل مصدر نال ينال ، فاستعمال النوال هنا خطأ

وركاكة البيتين الآتيين لا تحتاج الى بيان ، قال :

وصددت عنى حين أنت مدينة بالعهد عهـد سرائر المهجات
وقطعت لارسل اليك شفيعة لى فى رضاك ولاصدى هتفاتى

وما معنى قوله : « ولا صـدى هتفاتى » ! أيعنى أن صدى الهتفات لم يشفع فى رضاها ؛ وكيف يشفع الصدى ؟ !

ويقول :

والله واليوم الأخير ووقفـة لله أنذرها على عرفات
لو كنت فى نزع المنون غيراً ما بين قربك لحظة وحياتى

لاخترت قربك والمنون ولم أشأ نعمى الحياة على سرير مماتى
ولو استبنت الدمع يوم متيتى فى مقلتيك سمى اليك رفاتى

فلماذا كل تلك الأيمان المغلظة ؟ وما معنى هذا النذر ؟ أيعنى أنه ان اختار الحياة على قربها مع الموت يلزمه أن يقف على عرفات ! ثم كيف يستبين الدمع فى مقلتيها وهو ميت ؟ !

ميتة سكير

قصيدة الأستاذ محمود رمزى نظيم ، وهى قصيدة عذبة رقيقة ، تنساب فيها روح خفيفة ساحرة ، وأسلوبها من السهل الممتنع ، وإليك الدليل ، وما من شىء يبلغ فى التدليل على جمالها مبلغها هى فى ذلك ؛ قال فى مطلعها :

سقطت أسنانه فى الـ ـكأس سنا جرّ سنا
وأراق الخمر فى هيـ ـكله دنا فدنا
جن بالكأس وهل يد ـرى الذى بالكأس جنا
يحسب الناس الألى لا يشربون الخمر جنا
تخذ الحانة دارا واحتساء الراح فنا
عاش للراح حبيبا واجف القلب معنى
لو تمنيه بغير الـ ـكأس شيئاً ما تمنى
إن مشى تحسبه فى سكره غصناً تثنى
وشمالاً ويميناً مال تيهاً وارجحنا
ما صحا من سكره إلا إلى الحانة حنا

فهذا كلام تتراقص فيه الروح الشعرية تراقص الحباب فى الكأس . ونأخذ من بين هذه الأبيات قوله :

يحسب الناس الألى لا يشربون الخمر جنا

فما الصلة بين الذين لا يشربون الخمر وبين الجن حتى يحسبهم السكير كذلك ؟ اللهم إلا أن يكون قد ضعف تصوره من شدة السكر ..

والأستاذ رمزى نظيم شاعر متفنن ، وتراه فى هذه القصيدة يفتن فى الانتقال من صورة إلى صورة فى حذق ومهارة ؛ فهو بعد أن يصف السكير ينتقل إلى التعبير عن خواطره فيقول :

طالما أوحى إلى النصـ ـح ردوا النصح عنا
إن من يترك شرب الـ ـراح عمداً ليس منا
إن فى الحانة للخا ئف تشجيعاً وأمنا
نحن للكأس خلقنا وبها فى الكون عشنا

إلى أن أتى على مصرعه فقال :

أشبه الوهم فما يـ ـمع ان ناح وأنا
وقضى بالأمس لم تحـ ـزن عليه الناس ضنا

وكنا نحب أن يتفادى الشاعر السناد[1] الذى وقع فى قوله :

ورق الكرم أكف تحمل الكأس إلينا

الشباب والزواج

قصيدة السيدة منيرة توفيق . وهى الشاعرة المصرية البارزة الوحيدة فى هذا العصر ، إذ أن مصر تكاد الآن تكون مقفرة من الشواعر ؛ والمرأة المصرية تستمد صمتها من أبى الهول ، ولا أعنى إلا الامساك عن التعبير عن الاحساس والعواطف تعبيراً صادقاً ؛ فمن شعرت من بنات مصر فانما تقول فى الأخلاق والنصائح ، متجاوزة خوالج النفس ودقائق الحس ، لأن طبعها الصموت الحيى يأبى الحديث عنها . وأعتقد أنها لو قعلت ، وكانت موهوبة التعبير والأداء ، لأتت بالغرائب

وهذه السيدة الفضلى توجه القول إلى الشباب ، محذرة إياهم من الزواج بالأجنبيات ، ناصحة لهم أن يقبلوا على الزواج من بنات وطنهم فتقول :

وتزوجوا من عرضكم تبقوا على العرض السليم
ودعوا زواج الأجنبيـ ـة فهو شر مستديم
عجباً ! أللدور احتلا ل آخر فيها يقيم ؟

والقصيدة وان كانت معنونة بـ(الشباب والزواج) إلا أنها مقصورة على التحذير من الزواج بالأجنبيات ، فلا تعرض لأعراض الشبان عن الزواج إلا بهذين البيتين :

فدعوا الغوانى إنهـا باب يؤدى للجحيم
وخذوا الزواج فانه باب السعادة والنعيم

وقد أحسنت فى قولها :

لا يخدعنكمو جمال الـ ـأجنبيات الوسيم
كلا ولا سحر الكلا م ورقة الصوت الرخيم
هـذا لعمرى مظهر والله بالخافى عليم

وإن كان فيه ظلم لفتياتنا ، فهن فى هذه الصفات مجلّيات على ما أرى ، والله أعلم .

عباس حسان خضر

(١) السناد : عيب من عيوب القوافى ، وما هنا نوع من أنواعه ، وهو أن يدخل الشاعر حرف اللين قبل الروى ثم يدعه

أندلسيات

أبو بكر بن العـــربي

للأستاذ عبد الرحمن البرقوقي

أسلفنا أن المترجم له قدم الأندلس من رحلته بعلم كثير، واتخذ بلده أشبيلية مقاما له، وأخذ يذيع علمه، وجلس للوعظ والتفسير والافادة، ورُحِل اليه للسماع، وصنف فى غير فن تصانيف كثيرة حسنة ضخمة، حتى يروى أنه ألف أربعين مؤلفا فى موضوعات شتى فُقِد معظمها، ذكروا منها كتاب العواصم والقواصم، والمحصول فى أصول الفقه، وكتاب المسالك فى شرح موطأ الامام مالك، وكتاب الناسخ والمنسوخ، وكتاب أنوار الفجر فى تفسير القرآن، قالوا إنه ثمانون ألف ورقة فى ثمانين مجلدا، وكتاب عارضة الأحوذى[1] على كتاب الترمذى الخ ولمناسبة كتابه أنوار الفجر فى التفسير نورد كلمة له قالها عند تفسير قوله تعالى: «إِنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا»، تدل على أنه كان إماما طليقا واسع آفاق الفكر عصريا كما نعبر اليوم... وهى هذه: «ولقد نزل بنا العدو — الاسبانيون — قصمه الله سنة ٥٢٧، فجاس ديارنا وأسر جيرتنا، وتوسط بلادنا فى عدد حدّد الناس عدده، وكان كثيرا وإن لم يبلغ ما حددوه، فقلت للوالى والولى عليه: هذا عدو الله قد حصل فى الشرك والشبكة، فلتكن عندكم بركة، ولتكن منكم إلى نصرة الدين المتعينة عليكم حركة، فليخرج اليه جميع الناس حتى لا يبقى منهم أحد فى جميع الأقطار فيحاط بهم فانه هالك لا محالة ان يسركم الله له، فغلبت الذنوب، ورجفت بالمعاصى القلوب، وصار كل أحد من الناس ثعلبا يأوى إلى وجاره، وإن رأى المكيدة بجاره، فانا لله وانا اليه راجعون، وحسبنا الله ونعم الوكيل..» وقد أسند إلى المترجم له قضاء بلده. قال تلميذه القاضى عياض: فنفع الله به أهلها لصرامته وشدته ونفوذ أحكامه، وكانت له فى الظالمين سورة مرهوبة، وتؤثر عنه فى قضائه أحكام غريبة، ثم صرف عن القضاء، وأقبل على نشر العلم وبثه...

(١) العارضة القدرة على الكلام، يقال فلان شديد العارضة إذا كان ذا قدرة على الكلام، والأحوذى الخفيف فى الشىء الحذق

تلاميذه

وقد تتلمذ للمترجم له عدة ممن تخرجوا عليه وكان لهم شأن يذكر، فمنهم القاضى عياض صاحب الشفاء، وسنترجم له إن شاء الله — ومنهم الامام الحافظ ابن بشكوال صاحب كتاب الصلة وخلافه، ومنهم الامام السهيلى صاحب كتاب الروض الأُنف فى شرح سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وغيره من التواليف، وصاحب هذه الأبيات المشهورة التى أنشدها للامام الحافظ أبى الخطاب بن دحية وقال له: ما سأل الله تعالى بها حاجة إلا أعطاه إياها، وكذلك من استعمل إنشادها، وهن:

يامن يرى مافى الضمير ويسمع ... أنت المُعَدُّ لكل ما يتوقع
يامن يُرَجّى فى الشدائد كلها ... يا من اليه المُشْتَكى والمفزع
يا من خزائن رزقه فى قول كن ... أَمِنْ فان الخير عندك أجمع
مالى سوى فقرى اليك وسيلة ... فبالافتقار اليك فقرىَ أمنع
مالى سوى قرعى لبابك حيلة ... فلئن رُددتُ فأى باب أقرع
ومن الذى أدعو وأهتف باسمه ... ان كان خيرك عن فقيرك يمنع
حاشا لمجدك ان تقنط عاصيا ... الفضل أجزل والمواهب أوسع

أقوال مؤرخى الأندلس فيه

واليك نتفاً مقتطفة مما قاله فى حق المترجم له مؤرخو الأندلس ممن عاصره وتتلمذ له. قال الحافظ بن بشكوال فى كتابه الصلة: هو الحافظ المستبحر، ختام علماء الأندلس وآخر أئمتها وحفاظها.. كان من أهل التفنن فى العلوم والاستبحار فيها والجمع لها مقدماً فى المعارف كلها، متكلما فى أنواعها، نافذاً فى جميعها، حريصاً على أدائها ونشرها، ثاقب الذهن فى تمييز الصواب منها، يجمع الى ذلك كله آداب الأخلاق مع حسن المعاشرة ولين الكنف وكثرة الاحتمال وكرم النفس وحسن العهد وثبات الود الخ الخ وقال أبو نصر الفتح بن خاقان صاحب المطمح والقلائد:

الفقيه الحافظ أبو بكر بن العربى علم الأعلام الطاهر الأثواب، الباهر الألباب الذى أفنى ذكاء إياس، وترك التقليد للقياس، وأنتج الفرع من الأصل، وغدا فى بدء الاسلام أمضى من النصل،

سقى الله به الأندلس بعد ما أجدبت من المعارف : ومد عليها منه الظل الوارف ، وكساها رونق نبله ، وسقاها ريق وبله . وكان أبو محمد باشبيلية بدرا فى فلكها ، وصدرا فى مجلس ملكها ، واصطفاه معتمد بنى عباس اصطفاء المأمون لابن أبى دؤاد ، وولاه الولايات الشريفة ، وبوأه المراتب المنيفة ؛ فلما أقفرت حمص (يريد أشبيلية) من ملكهم وخلت ، وألقتهم منها ونخلت ، رحل به إلى المشرق ، وحل فيه محل الخاتف الفرق ، فجال فى أكنافه ، وأجال فيها قداح الرجاء فى استقبال العز واستئنافه ، فلم يسترد ذاهباً ، ولم يجد كمعتمده باذلاً له وواهباً ، فعاد إلى الرواية والسماع ، وأبو بكر إذ ذاك فى ثرى الذكاء قضيب ما دوّح ، وفى روض الشباب زهر ما صوّح ، فألزمه مجالس العلم رائحاً وغادياً ، ولازمه سائقاً اليه وحادياً ، حتى استقرت به مجالسه ، واطردت له مقاييسه ، فجد فى طلبه ، واستجد به أبوه متمزق أربه ، ثم أدركه حمامه ، ووارته هناك رجامه ، وبقى أبو بكر منفرداً ، وللطلب متجرداً ، حتى أصبح فى العلم وحيداً ، ولم تجد عنه رياسته محيداً ، فكرّ إلى الأندلس فحلها والنفوس إليه متطلعة ، ولأنبائه متسمعة ، فتاهيك من حظوة لقى ، ومن عزة سقى ، ومن رفعة سما اليها ورقى ، وحسبك من مفاخر قلدها ، ومحاسن أنس أثبتها فيها وخلدها ، الخ الخ .. وقد وصفه القاضى عياض بما أوردنا بعضه عن حاله فى القضاء ، وفى هذا القدر غناء . .

مقتطفات من منظومه ومنثوره

وأظنك لا تجهل أن أكثر علماء الأندلس وفلاسفتها وسائر مثقفيها يقرضون الشعر ، وقلّ أن تظفر بأندلسى لا يقول الشعر ، ومن ثم لا تستغرب أن يكون مثل القاضى أبى بكر بن العربى شاعراً وشاعراً ظريفاً ... فمن شعره وقد ركب مع أحد الأمراء الملثمين ، وكان ذلك الأمير صغيراً ، فهزّ عليه رمحاً كان فى يده مداعبا ، فقال :

يهزّ علىّ الرمح ظبى مهفهف ... لعوب بألباب البرية عابث
ولو كان رمحاً واحداً لا تقيته ... ولكنه رمح وثان وثالث

ولعل الرمح الثانى والثالث القد واللحظ .. ومن بديع شعره :

أنتنى تؤنبنى بالبكا ... فأهلاً بها وبتأنيبها
تقول وفى نفسها حسرة ... أتبكى بعين ترانى بها
فقلت إذا استحسنت غيركم ... أمرت جفونى بتعذيبها

وحكى رحمه الله قال : دخل على الأديب بن صارة — وهذا ابن سارة أو صارة شاعر فحل من شعراء الأندلس — وبين يدى نار عليها رماد ، فقلت له : قل فى هذه ، فقال :

شابت نواصى النار بعد سوادها ... وتسترت عنا بثوب رماد

ثم قال لى أجز ، فقلت :

شابت كما شبنا وزال شبابنا ... فكأنما كنا على ميعاد

ويروى أنه كتب كتاباً فأشار عليه أحد من حضر أن يذرّ عليه نشارة ، فقال قف ، ثم فكر ساعة ، وقال اكتب :

لا تشنه بما تذرّ عليه ... فكفاه هبوب هذا الهواء
فكأن الذى تذرّ عليه ... جُدَرى بوجنة حسناء

ومن شعره :

ليت شعرى هل دروا ... أى قلب ملكوا
ونؤادى لو درى ... أى شعب سلكوا
أتراهم سلموا ... أو تراهم هلكوا
حار أرباب الهوى ... فى الهوى واوتبكوا

وشعر هذا القاضى الجليل كثير جميل يدل على صفاء نفس وحس مرهف وقريحة خصبة مواتية . ونكتفى بهذا القدر ونورد هنا بعض فوائد هن فرائد لهذا الامام العظيم ذكرها فى رحلته وغيرها وأوردها المقرى . فمن هذه الفرائد قوله : سمعت الشيخ فخر الاسلام أبا بكر الشاشى ، وهو ينتصر لمذهب أبى حنيفة فى مجلس النظر يقول : يقال فى اللغة العربية لا تَقْرَبْ كذا بفتح الراء ، أى لا تلتبس بالفعل . وإذا كان بضم الراء كان معناه لا تدن من الموضع .. وهذا الذى قاله صحيح مسموع ... ومنها ما نقله عن ابن عباس رضى الله عنه : لا يقل أحدكم انصرفنا من الصلاة فان قوما قيل فيهم ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم ؛ وقد أخبرنا محمد بن عبد الملك القيسى الواعظ ، أخبرنا أبو الفضل الجوهرى سماعا منه : كنا فى جنازة فقال المنذر بها : انصرفوا رحمكم الله . فقال : لا يقل أحدكم انصرفوا ، فان الله قال فى قوم ذمهم ، ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم ، ولكن قولوا انقلبوا رحمكم الله فان الله تعالى قال فى قوم مدحهم : فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ... ومنها قوله فى تصريف المحصنات : يقال أحصن الرجل فهو مُحصَن بفتح الصاد فى اسم الفاعل وأسهب فى الكلام فهو مِسهَب — بفتح الهاء — إذا أطال البحث فيه وألفج

فهو مُلْقَح إذا كان معدما — فقيراً — فهذه الثلاثة جاءت بالفتح نوادر لا رابع لها . . ومنها قوله : سمعت إمام الحنابلة بمدينة السلام — بغداد — أبا الوفاء علي بن عقيل يقول : إنما تبع الولد الأم في المالية وصار بحكمها في الرق والعبودية لأنه انفصل عن الأب نطفة لا قيمة له ولا مالية فيه ولا منفعة مبثوثة عليه ، وإنما اكتسب ما اكتسب بها ومنها فلذلك تبعها ، كما لو أكل رجل تمراً في أرض رجل وسقطت منه نواةٌ في الأرض من يد الآكل فصارت نخلة فإنها ملك صاحب الأرض دون الآكل باجماع من الأمة لأنها انفصلت عن الآكل ولا قيمة لها ، وهذا من البدائع .. ومنها قوله : كان بمدينة السلام إمام من الصوفية وأيّ إمام يعرف بابن عطاء ، فتكلم يوما على يوسف وأخباره حتى ذكر تبرئته مما ينسب إليه من مكروه ، فقام رجل من آخر مجلسه وهو مشحون بالخليقة من كل طائفة ، فقال : يا شيخ ، ياسيدنا ، إذن يوسف همّ وما تمّ ، فقال : نعم لأن العناية من ثم . . . فانظروا إلى حلاوة العالم وللتعلم ، وفطنة العالم في سؤاله ، والعالم في اختصاره واستيفائه ، ولذا قال علماؤنا الصوفية إن فائدة قوله تعالى : ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً أن الله أعطاه العلم والحكمة أيام غلبة الشهوة ليكون له سياجاً للعصمة ... ومنها قوله : تذاكرت بالمسجد الأقصى مع شيخنا أبي بكر الفهري الطرطوشي حديث أبي ثعلبة المرفوع : إن من ورائكم أياماً للعامل فيها أجر خمسين منكم . فقال : بل منهم . فقال : بل منكم ، لأنكم تجدون على الخير أعواناً وهم لا يجدون عليه أعواناً .. وتفاوضنا كيف يكون أجر من يأتي من الأمة أضعاف أجر الصحابة مع أنهم أسسوا الاسلام ، وعضدوا الدين ، وأقاموا المنار ، وافتتحوا الأمصار ، وحموا البيضة ، ومهدوا الملة ، وقد قال صلى الله عليه وسلم في الصحيح : لو أنفق أحدكم كل يوم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه . . فتراجعنا القول وتحصل ما أوضحناه في شرح الصحيح ، وخلاصته : أن الصحابة رضي الله عنهم كانت لهم أعمال كثيرة لا يلحقهم فيها أحد ولا يدانيهم فيها بشر ، وأعمال سواها من فروع الدين يساويهم فيها في الأجر من أخلص إخلاصهم ، وخلّصها من شوائب البدع والرياء بعدهم ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باب عظيم هو ابتداء الدين والاسلام ، وهو أيضاً انتهاؤه . وقد كان قليلاً في ابتداء الاسلام صعب المرام لغلبة الكفار على الحق ، وفي آخر الزمان يعود كذلك لوعد الصادق صلى الله عليه وسلم بفساد الزمان وظهور الفتن وغلبة الباطل ، واستيلاء التبديل والتغيير على الحق من الخلق ، وركوب من يأتي سنن من مضى من أهل الكتاب كما قال صلى الله عليه وسلم : لتركبنّ سَنَن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع ، حتى لو دخلوا جحر ضب خرب لدخلتموه ...

وقال صلى الله عليه وسلم : بدا الاسلام غريبا ، وسيعود غريباً كما بدا ... فلا بد والله أعلم بحكم هذا الوعد الصادق من أن يرجع الاسلام إلى واحد كما بدأ من واحد ، ويضعف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، حتى إذا قام به قائم مع احتواشه بالمخاوف وباع نفسه من الله تعالى في الدعاء اليه كان له من الأجر أضعاف ما كان لمن كان متمكنا منه معاناً عليه بكثرة الدعاة إلى الله تعالى ، وذلك قوله : لأنكم تجدون على الخير أعواناً وهم لا يجدون عليه أعوانا حتى ينقطع ذلك انقطاعا بانا لضعف اليقين وقلة الدين ، كما قال صلى الله عليه وسلم : لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض : الله الله . . يروى بفتح الهاء ورفعها ، والرفع على معنى لا يبقى موحد يذكر الله عز وجل ، والنصب على معنى لا يبقى آمر بمعروف ولا ناه عن منكر يقول أخاف الله ، وحينئذ يتمنى العاقل الموت كما قال صلى الله عليه وسلم لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول : يا ليتني كنت مكانه ....

« وأما بعد » ، فهذا هو تاريخ القاضي أبي بكر بن العربي ، سردناه لك في أخصر قول وأجزأ اختصار ؛ وحسبك من القلادة ما أحاط بالعنق . ومن هذه الترجمة تتبين منزلة هذا الامام والمكان الذي يشغله بين علماء الاسلام ، وأنه كان إلى فقهه في الدين كأكثر السلف الصالح أديبا كاتبا شاعراً فصيحا كثير اللمح مليح المجلس وهكذا كان أكثر علماء الأندلس

وقد كانت وفاة هذا الامام سنة ٥٤٣ . وقال القاضي عياض : وتوفي منصرفه من مراكش من الوجهة التي توجه فيها مع أهل بلده الى الحضرة بعد دخول الموحدين مدينة اشبيلية ، فحبسوا مراكش نحو عام ثم سرحوا ، فأدركته منيته ودفن بفاس وقبره هنالك مقصود رحمة الله عليه .

عبد الرحمن البرقوقي
رئيس قلم المراجعة بمجلس النواب

السيرة النبوية
وكيف يجب أن تكتب
للأستاذ ابراهيم الواعظ

كنت إذا ظهر كتاب حديث عليه اسم « محمد » (ص) أسارع لاقتنائه ؛ ذلك لأنني كنت ولا أزال فى رغبة شديدة أن أسمع عن الرسول العربى العظيم ، وعن سيرة النبى الكريم شيئاً جديداً . والعامل الوحيد الذى أوجد فى هـذا الشعور ، وحرّك فىّ ذلك الاحساس ، هو الاطراد الموجود فى السير المكتوبة اطراداً يكاد أن يكون نسخةً مطابقة لأصل واحد ، ومحررة على غرار واحد

انني لم أرسل كلمتى هـذه منتقداً بها ما دونه الأقدمون فى السيرة ، وصاحب السيرة ، كلا ، وإنما أردت أن أقول للذين تناولوا السيرة وصاحب السيرة ، بأن الواجب كان يقضى عليكم أن تأتوا للناس بحديث جديد عن محمد (ص) بحديث يصور للناس محمداً كما هو لا كما أراده كتاب السير

طلعت علينا فى الآونة الأخيرة عدة كتب كتبت مؤخراً لتحليل شخصية محمد (ص) ، وما انطوت عليه نفسه من العظمة والعبقرية ، فمنهم من أصاب المرمى ومنهم من قارب ؛ فذهب الأستاذ جاد المولى فى كتابه « محمد المثل الكامل » إلى ناحية لم يتطرق إليها الأستاذ محمد رضا فى كتابه « محمد » ؛ وإن هذين الأثرين من حيث الترتيب والتنسيق جديدان ، ولكنهما من حيث المادة لا يزيدان ولا ينقصان عن السير القديمة . على أن هناك أستاذا كبيرا يكاد أن يكون فرداً فذا فى تأليفه هو « مولانا شبلى النعمانى » فان هـذا العالم الكبير أراد أن يستخرج من السير الموضوعة سيرة مستندة إلى أرجح الأقوال وأصح الروايات ، ويبرز الرسول الأمين للناس صورة حقيقية كما هى ، فألف كتابه الذى أسماه « تاريخ الاسلام » والذى أفرد منه أربعة مجلدات فى السيرة المحمدية . هذا ولا أريد أن أرسل الكلام فى وصف هـذا الكتاب جزافاً ، ولا أريد أن أخرج بالقارئ عن الموضوع والصدد ، وإنما قصدى أن أحث كل من يريد أن يتعرف محمداً « ص » كما هو أن يطلع على هذا الكتاب الذى أوضح شخصية محمد « ص » إيضاحاً ، وحلل نفسيته الزكية تحليلاً عجز عنه المتقدمون من كتاب السير والمتأخرون منهم

وقد جرى على غرار هذا المؤلف الأستاذ الكبير محمد حسين هيكل بك فانه كان قد كتب فصولاً فى السياسة الأسبوعية جمعها فى كتاب أخرجه للناس ، كتابا رد به طعن الطاعنين ودحض به زعم الزاعمين ؛ وكأنى بالأستاذ وقد كتب مؤلفه هذا لمن لا يؤمن بنبوة محمد مباشرة متوخياً فى عمله ذلك الدعاية والتبشير لا نقل ما هو مكتوب فى كتب السير من حادثات ووقائع

وإنى لا أتفق ومنتقدى كتاب الأستاذ هيكل من أنه أغفل كثيراً من الأمور المهمة فى السيرة بأنه أنكر المعجزات . والتطرق لهذا الموضوع يحتاج إلى إفراد بحث بكامله لهذا فليس من الأصول أن أقول كلمة فى ذلك سوى أنى أكتفى بالاشارة إلى ما أورده الأستاذ هيكل فى الطبعة الثانية من كتابه وأضيف إلى ذلك تعريف الكتاب لجمهور القراء من الشيخ محمد مصطفى المراغى العلامة الأكبر ، فان هذا التعريف لكتاب مثل هذا الكتاب له أهميته العلمية

هذا وقد سكتت الأقلام وجفت الصحف كأن « حياة محمد » التى دبجتها يراعة هيكل كانت خاتمة ما يكتب فى هذا الموضوع ، ولكن سرعان ما أتحفنا الأستاذ « الحكيم » بكتابه (محمد) (ص) فقد تفنن فى أسلوبه الجديد ، وجدد فى طريقته الفنية ، ولكنه لم يزد ولم ينقص عما ورد فى كتب السير ، فلم نكبر له الموضوع وإنما أكبرنا له الأسلوب

ثم كان بعد ذلك أن خرجت علينا الرسالة فى عددها (١٤٨) بمقال تحت عنوان « رسالة الأزهر فى القرن العشرين » بتوقيع الأستاذ لبيب الرياشى المسيحى وبها دعا الكاتب إلى أن تكون رسالة الأزهر فى القرن العشرين المسيحى ، والقرن الرابع عشر المحمدى ، دورته الأولى لرسالة الأزهر فى هذا القرن كالقرن

الأول المحمدي فيقابل الدور الأول دور التحنث والتعبد ، دور تحقيق ودراسة من ينتخبهم الأزهر من عشاق التضحية ، وعشاق الحق من طلابه ، فيثقفون ثقافة عالية ، ويتعلمون تعليما سامياً ، فيتخصص كل فريق ممن وقع عليهم الاختيار نتيجة الفحص والاختبار باللغات الحية وبكل فرع من فروع العلوم العالية العالية ، علاوة على ما أتقنوه من علوم القرآن والدين والشريعة والسنة والسيرة واللغة العربية ؛ وبعد هذا فرسالة الأزهر أن تكتب سيرة محمد (ص) بصورة تتفق وما جاء في القرآن الحكيم وعقلية الرسول البريئة وأعماله الحق .

وقد ضرب الأستاذ في مقاله أمثلة مهمة خطيرة حذر الأزهر من أن يقع في مثل ما وقع فيه غير واحد من متخرجيه

وإذا بهذا الأستاذ قبل أن كتب مقاله هذا في الرسالة أخرج لنا كتاباً من قلم مسيحي يحلل نفسية محمد بن عبد الله (ص) ، تحليلا فلسفياً ، ويطرح كتابه هذا أطروحة — كمثل أعلى — لمن يريد أن يكتب السيرة . سيرة الرسول الأعظم (ص)

لقد نحا الأستاذ الرياشي ناحية في كتابة السيرة لم ينحها قبله ولا بعده أحد من كتاب السيرة ؛ ولقد أظهر للملأ جديداً في حياة محمد بن عبد الله ووجد ضالته حين كان ينقب عن (السبرمن) ، فوجده مجسدا في شخصية الرسول الكريم قبل أربعة عشر قرناً

وقد أبدع الأستاذ الكبير الشيخ عبد القادر المغربي في تعريف الكتاب بمقدمته المحمدية ، كما أحسن الأديب أمين نخلة في تقديم الكتاب بمقدمته المسيحية

وبعد ، فاني قد وجدت ضالتي المنشودة في كتاب الرياشي ، وفي مقدمتيه المحمدية والمسيحية ، فأدعو الأزهر ورجال الأزهر كما دعاهم الأستاذ الرياشي أن يكونوا جماعة تكتب حياة محمد وسيرة محمد كما كتبها الرياشي

فعلى هذا النسق ، وعلى ذلك الأسلوب ، وعلى تلك الطريقة ، يجب أن تكتب السيرة النبوية

(نصار)

ابراهيم الواعظ
المحامي

الواحة المجهولة

للأستاذ فخري أبو السعود

مأنوسةُ الأفياء والأكناف ... موصولة الحسنات بالألطاف
عبق الشذا فيها وأصبح دوحها ... نُصْباً لكل مباكر وكّاف
وتألقت أزهارها وتمايلت ... أغصانها منضورة الألفاف
وتتابعت فيها الثمار شهية ... فتانة الألوان والأوصاف
وجرى النمير بها ألذّ مذاقة ... للوارديه من رحيق سلاف
أنى تصرّف مقلة لك تكتحل ... بجداول رقراقة وضفاف
ما تنتهي من فتنة إلا إلى ... أخرى ومن صوَر إلى أطياف
وتشابهت فيها الفصول فحسنُها ... سيان في مشتى وفي مصطاف
يا حُسنها من واحة لو أنها ... أهلَتْ وفاز بها الفتى بمطاف
لكنها مجهولة ممنوعة ... من دونها حَزن وقفر فياف
هيهات ما تُنبي صحائفُ عالم ... عنها ولا تهدي رُؤى عرّاف
لم يدرِ غيري سرّها فأنا الذي ... في أضلعي حُمّلتها وشغاف
هي قلبيَ النائي الذي من دونه ... غُمُ الطريق على الحبيب الواقي
ولو أهتدى يوماً لباء إلى حمى ... خصب وفاء إلى ظليل ضاف
ولقد أبحتُ صحابةً لي حقبةً ... أفياء تلك الروضة المئناف
فتمردوا في ظلها من بعد ما ... نعموا بأثمار بها ونطاف
فقبضتُها عنهم وصنت جناتها ... عن كل جاس في القلوب وجاف
فهي الغداةَ تميس في فتناتها ... والكون أجمع عن حُلاها غاف
نضرت أزاهرها ولا مَنْ يجتلي ... وزكَتْ دواليها لغير قطاف
وانساب سلسلها ومامن راشف ... وذكت نسائمها للامُستاف
هي جنة الود الخلي من القذى ... جمعت أفانينَ الوداد الصافي
تندى وتألق في الأزاهر والسنى ... في مهمه وعر المسالك خاف
وغداً سيذوى حسنها ورواؤها ... ويجف منها يانع الأفواف
لم يفتقد منها المحاسنَ فاقدٌ ... أو يبكها بالمدمع الذراف
وتعُولها تلك القفار وينثني ... يذرُو معالمها التراب السافي

فخري أبو السعود

البحر

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

ألا ليتنى لج كلجك زاخر
أعبُّ كما تهوى النهى والبصائر[1]

فكم عبت النفس اللجوج وحاولت
كبعض سطاك الآبيات النوافر[2]

وأخفت من الدر النفوسُ ومن حُلًى
كما اختبأت فيك اللهى والذخائر

كأن بها أفقاً كأفقك نائياً ومن دونه كل المدَى يتقاصر
أتطرب من لحن الخرير كأنه خواطر تتلوها عليك السرائر
كما طرب النشوان من لحن صوته فجاشت لديك الراقصات الزواخر
وإلا فما للموج فى اليمِّ راقصاً دعاه عذارى البحر شادٍ وشاعر[3]
خريرك يحكى صدحة الدهر صامتاً كأنك دهر بالحوادث ماثر[4]
هو الدهر لا يخشى المنايا ولا يهى صِبَاه ولا تقضى عليه المقادر
وأنت شبيه الدهر لا أنت هارم ولا أنت منقوص ولا أنت خاسر
ويصطخب الآذىُّ فيك كأنما اصـ
ـطخابك من حكم المنية ساخر[5]

أخَنْقٌ وإعصار ودفع وهبَّة كأنك حىٌّ نابض القلب شاعر
فريحك أنفاس وموجك نابض كنبض قلوب أعجلته البوادر
خلوتَ من الشمّار كالبيد والتحت معالم لا تُبْقِى عليها الأعاصر
سوى شِلْو فُلْك قد حدرت إلى الردى
يلوح كما لاحت رسوم غوائر

وكم جُزُر مثل الجِنان مضيئة كأنْ جهتها الصائلات الدوائر
تَخيلتْ نجومَ السعد والحب والمنى
فخنَّ إليها الشحشحان المُخَاطر[6]

(١) أى لج من الحياة والنهى (٢) أى النفوس الآبيات
(٣) عذارى البحر إشارة إلى الأسطورة الإغريقية
(٤) ماثر أى ماثج (٥) الآذى : الموج
(٦) الشحشحان : القوى الشجاع

كما حنَّ للآل الخلوب قوافل تَخُبُّ بها فى البيد إبلٌ ضوامر[1]
خلفتَ فى قلب المخاطِر همة على الدهر لا تبلى وتبلى المعائر
يحن إلى ما خلف أفقِكَ ناظر كما تنشد الغيبَ النهى والبصائر
كأن مُنَّى للنفس من خلف أفقه تلوح كما لاح السراب المبادر
أو أن محال السعد دُرٌّ مُنظَّمٌ على الأفق ينحوه الطلوب المغامر
بلى كل نفس للغريب مشوقة وإن خوَّفتها من سطاه المحاذر
ويصغر فى مرآك عيش ابن يومه ويكبُرُ رأىُ ذاهب فيك سائر
خواطر مثل الفلك فيك شوارد يضل عليها عازب اللب حائر
تناءت بك الأمواج وهى نوافر وجاءت بك الأمواج وهى ثوائر
كأن بها عجز المشيب إذا انثنت وعزم الشباب الغر وهى بوادر
فنم نومة الظـــل البطىء سيره
وثِبْ وثبة الغضبان حين يُساور[2]
فيارُبَّ حلم خامل البطش هادىء
ضمنت وجهـــل شره متطاير

كأن لنا من لج مائك واعظاً بليغاً له مما أثرت زواجر
رأيتك والأمواج فى وثباتها عساكر حرب قد تلتها عساكر
فبينا يريق الضوء فوقك ماءه وتجرى عليك الريح وهى خواطر
ويتلو عليك الصائدون غناءهم يرجِّعه لحن من الماء مائر
ويُسمِعك الملاح من شجو قلبه أحاديث قد ناقت لهن الحرائر
إذ الجو جهم والرياح كتائب وإذ أنت مقبوح السريرة غادر
ورب سفين يقرع النجمَ مجدُه تقاذفها مستوفز اللج هامر
يُرَوِّعها فى كل هوجاء مُوعِدٌ ويسعى لها قبر من الماء سائر
وما ذلك اللج الذى فى سمائها بأهدأ من لج غمته الزواخر
إذا ذكر الملاّح زوجاً وصبية طغى شجن فى مِرْجَلِ الصدر فائر
وتذهل عن مهد الوليد رءومه إذا مارمتْها بالوعيد الزماجر
وما هى إلا صولة ثُمَّتَ انجلت وأكبر غرقاها المساعى البوائر
كما غرقت فى لجة الدهر دولة زهت مازهت والدهر للناس غامر

عبد الرحمن شكرى

(١) الخبب العدو
(٢) نومة الظل سكونه الذى يشبه به سكون البحر كما تشبه سورته بسورة الغضبان

فمر المصايف المصرية :

رأس البر ... !

للأستاذ محمد يوسف المحجوب

مهدَ الهدوء وفُرضة الأحباب ... ها قد لقيتكَ بعد طول غياب
أقبلت نحوك ظامئاً ، ألقى لدى ... عطفيكَ أعبائى ، وأنفض مابى
قد هدَّ سعيُ العام أوصالى بما ... عانيتُ من درس ومن أوصاب
فاذا أتيت فحسب قلبى أننى ... لاقٍ بظلك منتهى آرابى ...!

* * *

داويتُ بالصحو الجميـــل متاعبى
ورأيت فيك الشمسَ دون حجاب
وظفرتُ عندك بالسكون يلفُّنى ... ويريح من ذهنى ومن أعصابى
وغمرتُ روحى قبل جسمى بالمنى ... لما استنمت لموجك الصخاب
غطّى على صخب الحياة ولفّهُ ... فمضى وضاع بلجّه المُنساب
لا الفكرُ عندك سابح فى مؤلم ... حاشا ولا الوجدان عندك خابى!

* * *

أصوم الصبح الجميل ، فتنتشى ... روحى بشمسٍ أشرقت وعباب
شمس أراها ، لا يصدُّ شعاعها ... عنا رُبًى ، أو ناطحات سحاب
وأرى الخضمَّ ولا شعاب تحدُّه ... فى ناظرى ... فتضلُّ فيه شعابى
وأرى غلباء الأنس حول كِناسها ... يطفرن فى مرح ووقد شباب ..
ترنو إليهن العيونُ ، وترتعى ... حسناً يزلزلُ رامىَ الألباب !
يُقبلنَ فى ساعِ الأصيل تراتباً ... تختال بينَ مُتوَّف الأثواب
ويَسِرْنَ أسْرَاباً ، يمايلُ عِطفَها ... فَرْطُ الصِّباء ويعدُنَ فى أسراب!
لا يستطيع الصبُّ تكليماً ، ولا
يقوَى على شىء ... سوى الإعجاب !
يَرْنو إلى ذاك الجمالِ كأنما ... يَرْنو إلى المعبود فى محراب ..!

* * *

جوٌّ عليه من العفاف رقابةٌ ... صانته عن عبثٍ يُرادُ وعاب
جوٌّ يضمُّ كرائماً وحرائراً ... باتَ الحياء لهنَّ خيرَ نقاب
وشبيبةً لا يرتضون من الهوَى ... دَنَساً يَشينُهمُ على الأحقاب
الكلُّ فيه « أُسْرةٌ » قد زانها ... أنْ ليس فيها سيِّئُو الآداب ..!
سَهِروا على الأخلاق واعتصموا بها
وَرَعَى الحُضورُ أمانةَ الغُيَّاب
هـذا هو العَيْشُ النبيل ، وهكذا
يَسْمُو « المَصيفُ » بإخوةٍ وصِحاب ..

* * *

... لا ما تَراه من الغَوَاية والخَنَا
فى « الرَّمْلِ » من هَمَلٍ وَمِنْ أوْشَابِ !
سَلْ شاطئَ « استانلى » وسل أترابه
كم قد بَرِمْنَ بفاسدى الآداب ... ؟
ظنُّوا الحياةَ مجانةً وخلاعةً ... فطوَوْا من الأخلاق خيرَ كتاب
ورَأَوْا لدى نَزَق الشبابِ نعيمهم ... فسَعَوْا له ومضَوْا بغير حساب !
بذرَ « الفرنجةُ » كل مُهْلكةٍ لهم ... وأتوْهُمُ بالبَهْرَج الخلَّاب
وَجَنَوْا لهم حُرِّيةً مزعومةً ... طاحَتْ بهم فى هُوَّةٍ وخراب !

* * *

يأيها « الرأسُ » الجميـــلُ : تحيةً
من صادق فى الوُدِّ ليس يحابى ...
لا غَرْوَ أنْ صُغْتُ القَريضَ مُخَلِّداً
ذِكراك أنتَ ، على مَدَى الأعقاب :
وَهَبَتْكَ دُنْيَاكَ العفيفةُ بيننا
مَعْنًى سَمَوْتَ به على الأتراب

محمد يوسف المحجوب

مجموعات الرسالة

ثمن مجموعة السنة الأولى مجلدة ٥٠ قرشاً مصرياً عدا أجرة البريد
ثمن مجموعة السنة الثانية (فى مجلدين) ٧٠ قرشاً عدا اجرة البريد
ثمن مجموعة السنة الثالثة (فى مجلدين) ٧٠ قرشاً عدا أجرة البريد
وأجرة البريد من كل مجلد فى الخارج ١٠ قرشاً

القصص

أعصاب

للقصصي الروسي تشيكوف

بقلم محمود البدوي

عاد المهندس المعماري دمتري اسيبوفتش فاكسن من المدينة إلى كوخه الذي يقضي فيه عطلته وهو متأثر غاية التأثر مما سمعه في جلسة استحضار الأرواح التي تشرف بحضورها !

وعند ما خلع ملابسه ، ومشى إلى فراشه المنعزل ، ولا أنيس معه فيه — فقد بارحت مدام فاكسن المنزل إلى عمل يستغرق طيلة الليل — لم يستطع أن يطرد عن ذهنه تصور كل ما سمعه ورآه في هذه الليلة التي لم يكن الحديث فيها ممتعاً على الاطلاق ! فلقد مضوا الليل كله في حديث مروع بدأته سيدة في رونق صباها — على ذكر لا شيء — بالكلام عن التفكير عند القراءة ، ومن هنا تشقق بهم الحديث دون ادراك إلى الأرواح ، ومن الأرواح انتقلوا إلى الأشباح ، ومن الأشباح تشعبت بهم سبل الكلام إلى أناس يدفنون أحياء .... ! وقرأ سيد قصة مرعبة عن جثة تسير وهي مدرجة في الكفن ... وطلب فاكسن نفسه فنجانة وأخذ يشرح للسيدات الصبايا الطريقة المثلى لمخاطبة الأرواح ! وأحضر من بين الموتى روح عمه كلافدي ميرونتش وسأله :

« الم يحن الوقت بعد لنقل ملكية منزلنا إلى زوجي ؟ »

فأجابته روح عمه : « كل الأشياء حسنة في حينها »

وفكر فاكسن وهو مضطجع على سريره وقال لنفسه :

« في الطبيعة أشياء كثيرة ... سرية ... ومفزعة ... فالمجهولات لا الأموات هي المروعة حقا »

ولما دقت الساعة واحدة انقلب فاكسن على جنبه الآخر ، وأخذ يرمق من تحت غطائه نور المصباح الأزرق المحترق أمام الصورة المقدسة ، وقد ارتعش لهبه ، وألقى نوره الخابي على قاعدة الصورة ، وظهرت أمام سريره صورة عمه كلافدي الكبيرة المعلقة على الحائط

ومض هذا الخاطر في ذهنه : « وماذا ... إذا ظهر في هذه اللحظة شبح عمي كلافدي ... ولكن بطبيعة الحال ... هذا محال »

ومع أن الأشباح — كما نعرف جميعاً — خرافات من ذرية الذكاء المحدود ... فقد ضم فاكسن غطاءه عليه حتى غطى رأسه وأغمض عينيه تماماً ! على أن الجثة التي سارت وهي ملفوفة في كفنها عادت إلى ذهنه بعد برهة قليلة ، ورفعت أمام مخيلته صور المرحومة حماته ، وزميل له شنق نفسه ، وفتاة أغرقت نفسها أيضاً ... وحاول فاكسن أن يطرد عن ذهنه هذه الصور السوداء ولكنه كان كلما أمعن في الطرد أمعنت هذه الصور في الثبات ، وأحاطت به خيالات مخوفة ، وأخذ يحس بالرعب المتمكن والجزع الشديد

وقال لنفسه :

« إلى المشنقة بهذه الخواطر جميعاً ... هأنذا خائفاً في هذا الظلام كطفل ... ممتوه . وسمع الساعة تدق في الغرفة المجاورة : « تك .. تك .. تك »

ورن ناقوس الكنيسة في فنائها القريب مبيناً الوقت .. دق الناقوس في بطء وانقباض وحزن .. وسرت رعشة شديدة في عنق فاكسن امتدت إلى عموده الفقري ، وخيل إليه أنه يسمع إنساناً يتنفس فوق رأسه بثقل ! كأن العم كلافدي قد رأى أن يبرح إطار صورته وينحني فوق ابن أخيه ... وشعر فاكسن بالرعب الذي لا يحتمل ، فصر بأسنانه ، وعلق أنفاسه في هول

ولما قفزت حشرة من الحشرات الطائرة إلى النافذة المفتوحة وانقلبت تطن فوق فراشه لم يستطع الاحتمال أكثر مما احتمل فجذب زر الجرس بعنف

وسمع بعد هنيهة صوت الحاضنة الألمانية واقفة على بابه تقول بالألمانية :

« ما الذى تريده يا دكتور اسيفتش ؟ »

فصاح فاكسن فرحاً « آه .. أأنت يا ... روزاليا كارلوفنا لماذا تتعبين نفسك ؟ .. أين جافريلا ؟ لا بد أن ... »

« بعثت أنت بنفسك جافريلا إلى المدينة ... وجافريلا مضت تقضى الليل فى بعض الجهات ... وليس فى المنزل أحد سواى ... فما الذى تريده من فضلك ؟ »

« حسنا ... الذى أريده ... هو ... ولكن من فضلك ادخلى ... لا داعى للقلق .. انه .. ظلام ... »

ودخلت روزاليا كارلوفنا وهى امرأة بادنة حمراء الخدين !! ووقفت على الباب وقفة المنتظر

« اجلسى من فضلك ... أنت ترين ... أن الأمر هكذا ... »

وعجب وقال لنفسه : أى شىء أسألها فيه وعنه .. ؟ وسارق صورة عمه النظر وشعر بروحه تعود تدريجياً إلى الهدوء

« الذى أوده منك فى الحقيقة هو ... آه ... لا ينطلق الخادم إلى المدينة لا تنسى أن تخبريه بأن أ ... أ ... يجىء ببعض أوراق السجاير ... ولكن من فضلك اجلسى »

« ورق سجاير ... حسناً ... وما الذى تريده أيضاً ؟؟ »

« الذى أريده ... لا شىء أرغب فيه ولكن .. اجلسى .. سأفكر فى شىء آخر بعد دقيقة »

« العذراء ... تخاف البقاء وحيدة فى غرفة رجل يا سيد فاكسن ... فهمت ! إن حاجتك الى ورق سجاير ... كانت فى الواقع لا تستدعى إيقاظ أحد ... فهمتك »

وانقلبت روزاليا كرلوفنا على عقبيها وغادرت الغرفة ، وسكن روع فاكسن لما تحدث معها وخجل من جبنه للغاية ، وغطى رأسه ، وأغمض عينيه ، وشعر مدة عشر دقائق كاملة بالراحة التامة ، وبعد هذا زحفت إلى ذهنه نفس الخزعبلات الماضية ... فتحسس الثقاب وأشعل شمعة وهو مغمض العينين ! وأصبح النور بعد الظلام الذى هيمن على كيانه عديم الجدوى ، فقد سور له خياله المضطرب أشباحاً طلعت من الأركان وبدت عيون عمه تتحرك .... !!

فقرر قاطعاً :

« سأدق لها الجرس مرة أخرى ... لعنة الله على المرأة ... سأخبرها بأنى أشعر بالتعب وفى حاجة إلى بعض أقراص من الحلوى »

وشد فاكسن الجرس فما جاوبه أحد . ودق ثانية فسمع جرس الكنيسة يدق كأنما يجاوب على دقاته بمثلها . واستولى عليه الرعب وشاع فى جسمه البرد فقفز من فوق سريره وغادر مخدعه يعدو راسماً علامة الصليب ، وأخذ يلعن نفسه لجبنه وخوره ، وجرى حافى القدمين فى قميصه الليلى حتى بلغ غرفة الحاضنة

وقال راجف الصوت وهو يطرق بابها :

« روزاليا كرلوفنا ... أنمت ؟ أشعر ... بأنى ر ... ر ... تعب ... أود قليلاً من أقراص الحلوى »

فما جاوبه أحد وخيم الصمت

« أرجوك ! أفهمت ... أرجوك ... لماذا هذا القرف ؟ .. لا أستطيع أن أفهم ... خصوصاً إذا كان الرجل ... مريضاً ... أى عبث ... أنت فى الحى ... وفى مثل سنك » فقالت له :

« سأخبر زوجك ... أنك لا تدع عذراء شريفة فى أمان ... لما كنت عند البارون ازنيج ... جاء إلىّ سعادته يطلب أعواداً من الثقاب ... ففهمت فى الحال معنى هذه الأعواد من الثقاب .!! وأخبرت البارونة ... فانا عذراء شريفة » فقال لها :

« إلى المشنقة بشرفك هذا ... أنا مريض ... قلت لك هذا ... وأطلب منك بعض أقراص من الحلوى ... أتفهمين .. إنى مريض » فأجابته :

« زوجك امرأة شريفة وطيبة ... ومن الواجب عليك حبها .. أجل ... إنها نبيلة طيبة ... ولن أكون لها عدوة »

فقال لها : « إنك غبية ... غبية ... أتفهمين ... غبية »

* * *

اعتمد فاكسن على سارية الباب ، طاوياً ذراعيه ، ومنتظراً أن يذهب عنه هلعه الشديد ، فان رجوعه الى غرفته حيث يرتعش المصباح ويحملق فيه عمه ... أمر لا يجرؤ على مواجهته ، وأن وقوفه على باب الحاضنة وليس عليه سوى قميص نومه أمر غير

لائق من جميع الوجوه ! ! فما الذى يعمله ؟ ؟

ودقت الساعة الثانية وما بارحه جزعه ؛ وكان المر مظلماً فبدأ له خيال أسود طلع من كل ركن واستدار ليواجه عقب الباب . على أنه تصور فى هذه اللحظة انساناً جذب قميص نومه من الخلف ولمس كتفه

فأعول ثم صاح :

« عذاب الجحيم ... روزاليا كارلوفنا »

ولما لم يسمع صوتاً فتح فاكسن الباب مترددا ودخل ؛ وكانت الألمانية الفاضلة غارقة فى سبات لذيذ ، وقد أظهر ضوء المصباح الخافت ما على وجهها من بشاشة ، ثم انساب الى داخل الغرفة ووقف بجانب حقيبة عند الباب ، وشعر بارتياح تام وهو فى حضرة مخلوق حى ، حتى ولو كان هذا المخلوق نائماً

ثم قال فى نفسه :

« خل الألمانية البلهاء غارقة فى نومها ... سأجلس هنا ... وحينما يزغ النور أرجع الى مكانى . . فالصبح يبكر فى هذه الأيام . . . »

استلقى فاكسن على الحقيبة ووضع ذراعه تحت رأسه مترقباً طلوع الفجر

وتأمل ! !

« أى شىء ... لما يكون المرء عصبياً ... ورجل متعلم ذكى ... لتشنق جميعاً ... إنه عار شنيع »

وعند ما تسمع إلى تنفس روزاليا كرلوفنا الرقيق عادت اليه نفسه وثاب حسه وهدأ تماماً

وفى الساعة السادسة عادت زوجه فاكسن من عملها الذى استغرق طول الليل ولما لم تجد زوجها فى مخدعه دلفت الى الحاضنة تسألها عن «فكة» للحوذى

ولما دخلت الغرفة رأت منظراً غريباً ! ! ! بصرت على السرير بروزاليا كارلوفنا غارقة فى النوم ... وعلى قيد ذراعين منها ينكمش زوجها على الحقيبة وينام نوم العادل !! ويغط غطيطاً عالياً

أما الذى قالته لزوجها وكيف كان حاله عند ما استيقظ فسأدع لنيرى تصوره فهو فوق طاقتى

فريد البستانى

هاجر العـــانس

للسيدة وداد السكاكينى

تسألينى يا صديقتى عن كآبة «هاجر» ووجومها ، وتتساءلين ملحة عن مجافيها وإيثارها العزلة والانفراد . إنك ربدينى على أن أفضى إليك بخبرها ، وأصرح عما أعلمه عنها ؛ ولا شك أن طلبك هذا يثير فى نفسى ذكريات الطفولة ويحملنى على أن أتحدر إلى أغوار الماضى ، حين كنت أعرف هاجر فى المدرسة تلميذة فى صف الشهادة ، وكم كان يشتد فرحى حين تدخل هذه الفتاة بيتنا فى البكور لتأخذنى معها ، فان عمتى أوصتها بمرافقتى إلى المدرسة ، وكانت رحمها الله صديقة حميمة لأسرة هاجر

كانت تدق باب بيتنا دقات مستعجلة ، فأبادر إلى صدارى الأسود ، وأعلق إلى جانبى محفظة كتبى بنجاد قصير ، فاذا أسرعت هاجر فى سيرها عدوت خلفها ، فأتعثر بمحفظة كتبى التى تتدلى على جنبى أو على ظهرى ، وكنت لا أقف لاصلاحها حتى لا تتأخر هاجر عن ميعاد المدرسة فتحرمنى مرافقتها فى الطريق

وكان يعظم سرورى حين تغيب معلمتنا العجوز الشمطاء ذات النظارة التى تربطها بالخيط إلى أذنيها وتحدرها إلى أرنبة أنفها فتطالعنا بنظرها المخيف من فوقها ، كنت أفرح وأصرح حين تغيب هذه المعلمة الغاشمة فترسل الينا المديرة « هاجر » كبرى تلميذات المدرسة لتحل محل المعلمة الغائبة ، وتعلمنا الدرس فأزهو يومئذ وألهو ، وألمس بأناملى رؤوس رفيقاتى اللاتى أمامى فيتلفتن وراءهن فاذا أنا صنم لا يتحرك

هذه صورة أولى لهاجر ما تزال فى ذاكرتى جلية بينة ؛ إنها كانت غضة الأهاب ، أنيقة الثياب ، ذات وجه أسمر مجدور ، وشعر جعد أسود ، قسمته ضفيرتين كثيفتين تنوسان على كتفيها ؛ وكانت صناع اليد تغزل من الصوف أردية شتوية لأختيها سعاد ومليحة ، وقد كان أبوها قاسياً جامداً ندم على تعليمها بعد أن حازت الشهادة ، لكيلا يفتح العلم بزهره قلبها وعينيها ، فخلف ألا يعلم أختيها

ومرت الأيام فاذا مليحة وسعاد فتاتان ناهدان ، تلوح عليهما ملامح الجمال ، وتبسم لهما الحياة والشباب ، فراحتا تحلمان بالزواج ، وقد خطرت للوالدين هذه الفكرة فتمنيا تحقيقها قريباً ، وكانا يرتاحان لكل من يفاتحهما في خطبة الفتاتين ؛ أما هاجر فكانت تضطرب أعصابها كلما رأت أبويها يسعيان لتوفير الزينة والدلال لأختيها ، ولا سيما بعد أن رأياها تستويان على عرش الأنوثة والجمال

ولا تسألي يا عزيزتي عن أحزان هاجر حين كانت تختصها أمها بتدبير المنزل والخياطة لأختيها ، واعداد ما تستطيع من الجهاز لهما ، خشية أن تخطبا معا ويضيق الوقت عن تهيئة المعدات اللازمة في حياتهما المقبلة

وكانت هاجر تنمو آلامها وتشتد ، وتحس الغصة تقطع نياط قلبها ، وكثيرا ماخلت إلى نفسها ، وتحدثت عن جدها العاثر عند والديها ، فتلعن الجمال الذي بدا على أختيها ، فحرمها الدلال وجعلهما تستأثران بعناية الأم واهتمام الأب

وأخذ شعورها يطغى على نفسها فلا تستطيع إلى كبته سبيلا ، ولاح الوجوم في وجهها ، وكان تفكيرها في دمامتها يعبث في روحها القلق والعذاب

كانت تناجي ربها حين تلجأ الى فراشها وتحاول النوم فلا يرنق في عينيها ، فتستعرض مظاهر الاهتمام بأختيها وإهمال أمها لها فتطفر الدموع من عينيها حزناً على حياتها الجافة البغيضة . وارحتاه لهاجر ! كم كانت تتكلف الهناءة والهدوء أمام والديها وأختيها فتتظاهر بالانشراح لخطبتهما !

وكان لسوء مصيرها أن تلألأ حظهما وتكاثر الأخطاب ، ففي عصر يوم جاء بيتهن ثلاث نسوة فاستقبلتهما الأم وهاجر بملابس البيت وأوعزت الأولى الى سعاد ومليحة بأن تتزينا بأحسن ما عندهما من اللباس الجديد وتتضمخا بأزكى العطور ، وما استقر المقام بالسيدات حتى أقبلت مليحة وسعاد وكأنهما عروسان ليلة الزفاف ، فلما رأينهما بهرتاهن وعلقت بهن أنظارهن ، فتجاذبن أطراف الحديث بسهولة وسرعة كأنهن صديقات العمر ، وبعد قليل طلبت إحداهن من الفتاتين شربة ماء ، ولم يكن بها ظمأ ولا حاجة الى تقع غلة ، بل كان مرامهن جميعاً ، أن يرين انقلابهما بالمشي وانتقال أرجلهما على الأرض ، وأن يمعن النظر في طولهما وحركاتهما

كل هذا حدث وهاجر المسكينة جالسة الى جانب أمها تنظر الحظ يضحك لأختيها ويقهقه ، وتفكر في نفسها فترى حظها عابساً مكفهراً ، ثم أخذت تطالع في عيون الخاطبات ومضات الافتتان والاعجاب بأختيها ، فلم يسعها البقاء في الغرفة فخرجت منها خشية أن تعي ارادتها وتستحيل كآبة نفسها دموعاً كاوية فتفضح وجوهها وآلامها

وآن ذهاب السيدات فقمن يودعن الأم والفتاتين بالسلام والتقبيل ، فلثمن ثغري سعاد ومليحة ليشممنهما فيعلن إذا كانت فيهما رائحة تكره ، وعانقنهما لينشقن إبطيهما لعلهما تعرقان ، وهصرنهما الى أجسامهن ليحسسن هل هو عظم ناتئ أم لحم رهو لطيف ، وكانت الأم والبنتان يشيعن الزائرات بمنتهى المجاملة والاغراء

كانت هذه الزورة المأنوسة يوم سعادتهن المشهود ، فما أغلق الباب خلف السيدات حتى انثنت الأم الى ابنتيها الجالستين تدعو الله لهما بفتح البخت ومجيء النصيب السعيد ، وأن يقيض لهما زوجين من أحسن الرجال وأغناهم ، ثم سكتت إذ شعرت أنها استرسلت في الدعاء لهما دون هاجر فقالت وهي تشير الى غرفتها وأنت يا «هاجر» الله لا ينساك يا حنونتي » !

بعد أسبوعين كنت ترين يا صديقتي في إصبعي سعاد ومليحة خاتمي الخطبة ، وكنت أتردد على بيتهما لأساعد الأم وهاجر في اعداد الجهاز ، اما هاجر الكئيبة فكانت ترنو بعينيها الى الخاتم الجاثم في يد أختها فيحز في روحها الشعور المؤلم بالحقيقة الراهنة ، فتجاهد حسها وتكابد العذاب في مقابلة ما تعانيه من قلق واضطراب لئلا يقال : إن غمامة من الغيرة والحسد تخيم على نفسها فتسيء الى سمعتها ، وبرغم ذلك كله كانت تنتابها من حين لآخر نزوات من السخط ، فتدعي بأنها تبرم بأعمال البيت المرهقة واستعجال الأهل في تهيئة الجهاز بوقت حرج قريب

لقد تزوجت الأختان ويعلم الله كيف حضرت هاجر عرسيهما ، إنها لم تسمع الغناء بأذن واعية ، ولا أبهت للرقص ، ولا ذاقت من صفوف موائد الحلوى

لم تحقد هاجر على أختيها وإنما كان فى قلبها غضب على الأيام كالنار فى الحشا تتمنى لو أن الله خلقها جبلة فاتنة أو خلقها ذكراً

* * *

أصبحت هاجر وحدها فى البيت مع أمها وأبيها ، وقد جاوزت الثلاثين فكانت تعيش فى نضال دائم بين الأمل والقنوط ، وتتساءل بحرقة وحيرة عما تتوقع من الأيام وهى تمر وشيكة عجلى ، أيشفق الحظ عليها وإن تقدمت سنها ، أتهيئ الأقدار لها حياة زوجية كأختيها ؟ ألا يوجد بين الرجال من يؤثر جمال الخلق والنفس على جمال الجسم والوجه ؟ فتزدحم فى مخيلتها صور من الأحلام والآمال تكبح جماح نقمتها وتبعث فى نفسها قليلاً من الاطمئنان ، ثم تقوم الى كتبها فتواسيها بحوثها وتسليها وتبحث فيها عن مآسى الحب والحياة ، ولبثت ردحاً من الزمن تساورها الأمانى برغم ما كان يبعدها من الواقع عن تحقيقها فتلمست فى هذه الظاهرة الجديدة لوناً من العزاء والجام

لقد صبرت هاجر بضع سنين انقلب عزاؤها بمرور الأيام ثورة نفسية ألمية جعلتها غريبة الأطوار قليلة الكلام ، فأهملت العناية بألبستها وتسريح شعرها الذى عدا عليه الشيب كما أنها هجرت الاكتحال والصباغ وغارت عيناها وبرز جبينها المستدير وبدا فى وجهها الشاحب ما يبدو للراهق الطارر

عاشت هاجر البائسة فى هذه الحقبة القصيرة يغمرها يأس عاصف وتصدمها الحقيقة الواقعة ، ثم عبثت يد السآمة برغبتها فى المطالعة فأعرضت عنها ونشدت السلوة فى التنزهات القريبة

كانت أمها تشهد اضطرابها وتديم التأمل والتفكير فيها ، وتطالع فى عينيها أمارات القلق والنقمة فتحس فى نفسها عذاب الضمير لأنها كثيراً ما حالت دون خطبتها بشتى المعاذير ، فكانت ترد أخطابها دون علمها ؛ وكانت هاجر إبان ذلك فى ميعة العمر وريق الشباب ، فأدركت الأم أن أنانيتها الحمقاء هى التى كانت تسول لها الازدراء بفتاتها الكبرى كلما أسرعت بها الأعوام حتى آثرت أن تبقيها عزبة لخدمة شيخوختها ، ولولا أثرتها واهمالها لكانت هاجر مثل أختيها زوجاً سعيدة وأماً حنوناً

وطفى على روح الأم شعور النـدم ، ورزان عليها الغم والاكتئاب ، فأحبت أن تكفر عن خطيئتها بتوفير الخدمة والدراية لهاجر ، وترغيبها فى ممارسة التعليم الخاص فى بيتها وزيارة صديقاتها

واستمرت السنون فى سيرها فمات أبوها ولم يترك لها ما يؤمن معيشتها ، وبقيت أمها عندها ، أما أختاها فشغلهما عنهما الزوج والأولاد ، وكان لكل منهما حياة خاصة لئيمة ، لا تزاح لزيارة الأم والأخت لها ، فأهملت المتزوجتان أمهما لئلا تعصف فى بيتهما عواصف السوء والأحقاد

وفى جو هذا العيش البائس الخانق كانت هاجر تناقش نفسها فى مصيرها فرأت من الحكمة وفصل الخطاب أن تحترف التعليم فعينت فى المدرسة التى نشأت فيها وثقفتها

كان بين هاجر المانس ومديرة المدرسة دالة ومودة ، فكانت تستشف فى أحاديث هاجر حسرة ومرارة وتبرما بتكاليف الحياة ، فتنفس عنها — بعطفها ولطفها — بعض ما يحتدم فى نفسها من ضيق وانقباض

وعهد فى المدرسة إلى هاجر بتعليم العربية لبعض الصفوف الابتدائية ، فكانت شديدة العناية بتمويد التلميذات حسن الالقاء وتجويده ، وكلما آنست منهن تقدما ونجاحا أوصتهن بالمثابرة على لهجتهن التى أخذنها عنها ، إذ كان أملها القديم الذى غدا أوهن من بيت العنكبوت يعاودها الفينة بعد الفينة ، ويوقظ فيها ما رقد من رجاء فى الزواج ، فتقول للتلميذات : حافظن على لهجة الالقاء فربما لا أعود البكن فى العام القابل

جالت المديرة مساء يوم أرجاء المدرسة وراقبت صفوفها ، فوقفت بباب صف سمعت فيه لغطا ولغوا ، فاقتحمته وهى تظن أن ليس ثمة معلمة فيه ، وشد ما شدهت حين رأت هاجر تحدق بنظرها فى الأفق البعيد دون أن تتنبه لوجودها

تقدمت اليها المديرة بلطف وابتسام ، وسألتها : فيم تفكرين يا هاجر ؟ فأجابت : إننى أتأمل هذه الطفلة الجالسة ههنا ، وأشارت اليها ثم أردفت قائلة :

انظرى ياسيدتى مآسى الدهر ومهازله ؛ إننى أفكر فى أم هذه الطفلة ، فلقد كانت تلميذتى ! !

(دمشق) وداد سكاكينى

مأساة من سوفوكليس

٤ ـ أنتيـــــجونى

للأستاذ دريني خشبة

تتمـــــة

— ١١ —

الخورس : « مولاى ! إن تيريزياس لم ينطق عن هوى قط ! لقد أشملت السنون رأسه بشيب التجارب ، وإن هذه لنبوءة ... إنها لنبوءة ! ! »

الملك وقد بدا عليه الفزع : « أنا أعرف ذلك ! وا أسفاه ! لبئد ما أزعجتنى نبوءة تيريزياس ! ولكن ... ماذا أصنع ! ان التقهقر يؤلمنى !

— « ما تزال فسحة من الزمن للتبصر يا مولاى ! »

— « ماذا أصنع ؟ أنصحوا لى ! سأطيع ! سأخضع ! أنصحوا لى !

— « انطلق من فورك فاستنقذ الفتاة من قبرها ، وابن قبرا للقتيل ! »

— « أهذه نصيحتكم ؟ ... ها ... ها ها ... لا ... لن أستسلم ! لن أستخزى !

— « البدار البدار ! أسرع ما استطعت ! إن السماء نفسها تتجهم ... إنها تنذرك بلسان الكاهن

— « أواه ! أفاجبر ! أنا مغلوب على أمرى ! أنا ما أستطيع مغالبة القضاء !

— « هلم الساعة فاصنع كل شىء ! بيديك أنت ! لا تشرك يداً أخرى !

— « هلموا فى إثرى ياشعبى العزيز ! هاتوا عدتكم ! سأبنى القبر ، وسأحل العقدة التى أحكمت رباطها ! لشد ما يضطرب الجزع فى حنايا ضلوعى ! لماذا حدث عنى طريق قومى ؟ ياللشجو ! !

« يخرج الملك عجلا »

— ١٢ —

ويردد الخورس عظة الموقف ، ثم يدخل رسول فيقول :

— « سلام على جيرة قدموس وأحياء أمفيون [1] ! قضى الأمر ، فلا سعادة تنفع ولا شقاء يبقى ! الجميع سواء ! الملك ! ما الملك ! ماهو إن كان موحشاً هكذا ! حلك شديد وظلمة تتدجى !

— « ماوراءك يارسول ! أى ضيعة ناء من جديد بكلكله على هذا البيت ؟

— « ماتوا ! ! وقتلتهم ما يزالون أحياء !

— « من القاتل ومن القتيل ، أفصح يارسول !

— « هايمون ! قتل هايمون ! انتحر المسكين ! ! قتله يأسه وأودى به قنوطه ، وحزنه على الفتاة التى قتلها أبوه !

— « ويحك يا كاهن طيبة ، ما قلت إلا حقا ! ويا ! الملكة ! إنها قادمة ! مسكينة يا أم هايمون ! لشد ما تحزنين اليوم

— ١٣ —

« تدخل الملكة يوريدس »

— « فيم تناجيكم أيها الأعزاء ! أحقاً قتل هايمون نفسه ؟ لقد سمعتكم تقولون مثل هذا ؟ ! نبئونى ! لا تزعجوا ! ليست هذه أولى مصائبى ، أحقاً مات ولدى ! ؟ تكلموا ! !

— الرسول : « أيتها الملكة ! سأقص عليك كل شىء ، لقد شهدت المأساة بنفسى ! كلنا سواء فى الحزن وشركاء فى الأسى ! لقد ذهبت فى إثر الملك الى بطحاء طيبة حيث جثمان بولينيسيز ، وحيث عمل الملك بيديه فى حفر مقبرة لبقايا القتيل التى أبقت عليها عقبان الجو وذؤبان الفلاة ... ثم انثنينا الى القبو المظلم الغطيع الذى أمر بأنتيجونى أن تموت فيه ... وما كدنا نقترب حتى سمعنا نشيجاً مؤلماً وأنيناً مفزعاً ... ثم اذا صرخة داوية تتردد فى حنايا القبو ... وأسرعنا الملك أن نتقدم حين أدرك أن الصوت صوت هايمون ... تقدمنا أيتها الملكة ! واحزناه ! لقد بلغنا أقصى زاوية فى القبو ! ياللهول ! أنتيجونى ؟ ! مسكينة ! لقد شنقت الفتاة نفسها بغلالة حريرية فى سقف القبو ! ! وركع هايمون على ركبتيه ... بجانبها ... وأخذ يعانقها ... ويبكى ... ويندى حظه ... ويبث شكواه ! وكان يندب حبه بكلمات مُشتة تقطع نياط القلوب ! ... وكلمه أبوه ... ولكن حدجه بنظرات غائرة ، ثم انتزع سيفه وجعل زُجه الى أرض القبو ، وسدّده فى صدره ، واتكأ المسكين بكلكله عليه ، فبرز الجراز يلمع من ظهره ... وسقط قليلاً على الثرى ، وظل ذراعه الضعيف الوانى ملتفاً حول خصر أنتيجونى ! ! وتدفق الدم مختلطاً بتراب القبو ... وذهبت روحه البريئة محوطة بأرواح الآلهة الى هيدز ! ! »

« تخرج الملكة كالمجنونة لا تلوى على شىء »

— ١٤ —

— « ماذا تستنتج من هذا ؟ لقد انطلقت الملكة دون أن

(١) هو ابن زيوس وملك طيبة ومن كبار الموسيقيين

تنبس ببنت شفة ؟ !

— عجيب حقاً !! ربما كرثها الخطب ، فهى ذاهبة تجمع له وصيفاتها ثم يبكى الجميع شباب هايمون !

— « ... أ ... الملك !... الملك قادم ... ماذا يحمل ؟ ... وى ؟ إن الحزن كاد يصعقه ! !

« يدخل كريون حاملا جثمان هايمون »

— « ويل لى من قتيل قاتل ! ويل لى مما جنيت على نفسى ! يا رحمتا لك يا ولدى ! ويح لك يا هايمون ! أنا قاتلك فاعف عنى ! اصفح عن والدك يا هايمون ! آه ! ... آه ... !

الخورس : « مسكين ! يندم الآن ولات حين مندم ! انبلج الحق لعينيه ... ولكن ... بعد أن لم يكن شىء !

الملك : « وا أسفاه عليك يا ولدى ! الساعة فقط ألمس أخطائى ! لكأنما كان القدر يصعب عينى ! ! »

« يدخل رسول ثان »

— « مولاى ! أنت هنا تبكى ولدك ... وفى القصر ... بكاء جديد يا مولاى ؟ !

— « بكاء جديد ماذا ؟ ما ذا تخبأ لى الأقدار بعد هذا ؟

— « الملكة يا مولاى ... الملكة ...

— « الملكة ؟ ...

— « إى ... ماتت !

— « ماتت ! وا حربا لى آه يا برزخ الموت لم يجرف تباركك قطع نفسى ؟ وأنت يا رسول الشؤم ! لقد قتلتنى مرة أخرى ! ألا تحدث أيها الرسول ! أهى مضرجة بدمائها مثل هذا ...

« ترفع ستار عن جثة الملكة فتبدو للعيان »

— « وا حسرتاه عليها قدمت ! بكاء جديد وشجو آخر ، أى خطوب أنكى تتربص بى أيضاً ؟ آه يا ولدى الحبيب ... ويح لك ... ولأمك ... أمك التاعسة ...! »

الرسول : « لقد كانت تصلى للآلهة أمام المذبح ، وكانت أيضاً تبكى ولديها ميجاريوس وهايمون قبل أن تطعن نفسها بخنجرها »

الملك : « ألا من يطعننى أنا الآخر بخنجر ذى شعبتين ، فلا يبقى ولا يذر ! ... واحزناه ! ...

الرسول : « لقد طعنت نفسها بعد أن انطلقت من هنا وبعد أن سمعت بانتحار هايمون »

الملك : « أنا القاتل يا رفاق ! أعترف ! أنا القاتل ! لقد قتلتهم جميعاً ... اقبضوا على !

مرحبا بالموت ! مرحبا به من منقذ ! لن أعيش ليوم آخر ، لن تشرق على بإذكاء مرة أخرى

الخورس : « الزمن كفيل بكل شىء ! والقدر يبرم نهايته ! »

الملك : « لقد صليت صلاتى وأودعتها كل أمانى ! »

الخورس : « وماذا تجدى الصلاة ؟ إنها لا تدفع حشرجة المحتضر ! »

الملك : « هلموا بى ! هلموا بالرجل المتجبر الذى قتل ولده . وقضى على ... زوجه ! ... إن الدنيا بأجمعها تهاوى فوق رأسى حجراً حجراً ! يا للمقادير ! يا للشجوى ! ... »

الخورس : « العمل الصالح طريق السعادة المهد ! وطاعة السماء فرض قدسى ! الكبرياء تحطم الكبرياء ! والخيلاء تورث الشقاء ... والسعيد من اتعظ »

دريني خشبة

لجنة التأليف والترجمة والنشر

النتائج السياسية للحرب العظمى

تأليف رمزى صيور

أستاذ التاريخ الحديث بجامعة منشستر سابقاً

وترجمة الأستاذ محمد بدران

ناظر مدرسة بنبا قادن الابتدائية

كتاب قيم يبحث بحثاً علمياً منطقياً فى القوى والعوامل الخفية التى كانت تسيطر على أوربا والعالم أجمع منذ أوائل هذا القرن والتى أدت إلى اشتعال نار الحرب العظمى وعينت شروط التسوية التى أعقبتها ، وهو يشرح ما فى هذه التسوية من أغلاط ويتنبأ بالحوادث التى وقعت فى العالم فى المدة الأخيرة ونقضت شروط هذه التسوية ، وقد أضاف اليه المترجم فصلاً فى حوادث الست السنين الأخيرة فى الصين والحبشة وألمانيا وبلاد البلقان والشرق الأدنى فهو لذلك كتاب لاغنى عنه للعالم والطالب والقارئ العادى ، والكتاب يقع فى نحو أربعمائة صفحة ، وقد طبع طبعاً متقناً على ورق جميل مصقول ويطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ومن المكاتب الشهيرة ، وثمنه عشرة قروش عدا أجرة البريد

البريد الأدبي

عطف المسلمين على منكوبي فلسطين

كان من أثر ما نشرته (الرسالة) من الوصف الناطق لمآسي فلسطين الدامية أن دفعت الأريحية العربية إخواننا في (تلمسان) إلى أن يؤلفوا جمعية لاعانة منكوبي فلسطين، فجمعت في أول اجتماع ألفا وخمسين فرنكا فرنسيا؛ أرسلت بها تحويلا إلى إدارة الرسالة على بنك الكريدي ليونيه في باريس. وقال الفاضل السيد المختار الصبان أحد أعضاء هذه الجمعية في كتابه الينا: «وقد اقتضى نظر اللجنة المكلفة بجمع الاعانات في (تلمسان) أن يُبعث هذا المبلغ باسمكم، راجين من فضلكم أن تبلغوه أنتم من هناك إلى من هو قائم بقبض الاعانات وتلقيها بفلسطين. وهذا مبلغ أول اجتمع بيننا، وسنوافيكم بعده إن شاء الله بكل ما يجتمع لدينا، لأننا ما زلنا قائمين باب الاعانة ودائبين في العمل ...»

و (الرسالة) باسم فلسطين تشكر لأهل تلمسان أريحيتهم، ويسرها أن تكون واسطة خير بين احسانهم وبين لجنة الاعانة

مسألة الأجناس

وجهت مجلة «النوفيل لتريو» الباريزية إلى طائفة من أكابر الاخصائيين الفرنسيين في علوم الأجناس البشرية (البيولوجيا والانتروبولوجيا) عدة أسئلة تثيرها اليوم مسألة الأجناس في أوربا؛ وأخصها ما يأتي: (١) ماهو مبلغ نظرية جوبينو عن مزايا نقاء الأجناس أو تمازجها من الصحة؟ وهل يمكن أن تعتبر من الوجهة العلمية من عوامل التأثير في الحياة العقلية والمادية للأمم؟ (٢) هل يمكن أن يعتبر وجود الأجناس النقية المنعزلة في عصرنا حقيقة بيولوجية؟ أم هل تقتصر هذه الحقيقة على بعض الميول العقلية والمصطنعة التي تتأثر بها اليوم بعض الأمم؟

وقد أجاب على أسئلة المجلة الباريزية عدة من أكابر العلماء منهم الأستاذ ريبو أستاذ البيولوجيا في كلية العلوم الباريزية، والمسيو رفيرمد برمتحف الأنتروبولوجيا، والدكتور فرنو أستاذ الأنتروبولوجيا في معهد باريس. وتتلخص أجوبة هؤلاء العلماء فيما يأتي:

(١) إن الأجناس أو السلالات النقية نادرة الوجود في عصرنا حتى في أعرق الأمم حضارة، ولا يوجد أي نموذج منها في أوربا. وهي من الوجهة النظرية يجب أن تكون وحدات بيولوجية. ولكن الواقع أن الجماعات التي تزعم أنها قد احتفظت بنقاء الجنس لا تقوم إلا على المصلحة المشتركة، ولا تجمعها سوى ميول عقلية أو مصطنعة، وهذه ليست سوى عواطف يستغلها القادة في الجمهور الساذج

(٢) إن امتزاج الأجناس الرفيعة بالأجناس المنحطة لا ينتج دائماً من الآثار السيئة ما يقول بعض العلماء؛ فقد ثبت من المشاهدات البيولوجية الحديثة أن هذا الامتزاج ينتج أحياناً نماذج جنسية بديعة. مثال ذلك امتزاج الأسبان والبرتغاليين بالهنود في البرازيل، فقد أنتج في بعض الأقاليم جنساً خلاسياً هو أذكى وأنشط وحدات الشعب البرازيلي.

وقد أنتج امتزاج المستعمرين الهولنديين في جنوب افريقية بالهوتنتوت شعباً ذكياً قوياً من الوجهة الحيوية

ويلاحظ الأطباء الفرنسيون أن امتزاج الفرنسيين بالهند الصينيين ينتج نسلاً بديعاً خصباً

وقد لاحظ رحالة انكليزي كبير أن امتزاج السود بالبيض في الجزر الجنوبية في المحيط الهندي ينتج نسلاً جميل التكوين وافر الذكاء؛ وقد لاحظ بنوع خاص أن النساء الخلاسيات في هذه الجزر يتمتعن بجمال في الوجه والجسم يندر أن يوجد في كثير من الأجناس الأوربية

والخلاصة أن آراء أولئك العلماء تكاد تتفق على نقطة جوهرية هي أن نظرية نقاء الأجناس لا تقوم من الوجهة العلمية على أسس صحيحة

رواية عهد مصر الفرعونية

كان أول من اتخذ أساطير مصر الفرعونية وتاريخها موضوعا للقصة المصرية الكاتب والرحالة الألماني الشهير جورج إيبرس ، فقد أخرج لنا عن مصر الفرعونية عدة قصص امتازت بحسن السبك والخيال ؛ ولم تكن المباحث الأثرية الفرعونية قد تقدمت فى عصر إيبرس ، أعنى منذ نحو قرن تقدماً يذكر ، وقد أثارت الاكتشافات الأثرية الأخيرة فى تراث مصر القديمة اهتماماً كبيراً ، وألفى فيها جماعة من الكتاب من مختلف الأمم مادة حسنة للقصة الممتعة . ومن هذه القصص التى ترجع بنا إلى الماضى الغابر ، قصة صدرت أخيراً بقلم الكاتب الانكليزى چاك لندسى عنوانها « جولات ويناميز » The Wanderings of Wenamen ، وهى قصة تدور حوادثها على أواخر عصر طيبة حينما أشرفت مصر على هاوية الفوضى والحرب الأهلية ، وبطلها موظف حكومى يدعى ويناميز أوفده الكاهن الأكبر « آمين » إلى لبنان ليشترى خشباً من الصندل ليصنع منه قارب مقدس ، ويصف المؤلف أحوال مصر المضطربة خلال الرحلة وما يلاقيه ويناميز من الاحداث والمفاجآت الخطرة ، ويصف بالأخص ظروف الحياة فى طيبة القديمة ، ويقارنها بالحياة فى مصر الشمالية (الدلتا) ، ويبدى مستر لندسى براعة خاصة فى تنسيق الحوادث التاريخية وسبكها فى قالب القصة المبتكرة دون أن يجنى على روحها أو صبغتها التاريخية ، وهذه مقدرة تشهد له بالتوفيق فى فهم روح مصر الفرعونية كما يجب أن يفهمها قصصى يحاول أن يعرض الحقيقة فى ثوب الخيال . ويرى بعض النقدة أن مستر لندسى هو أول قصصى انكليزى استطاع منذ تشارلس كنجسلى مؤلف « هيباسيا » التى تدور حوادثها على العصر اليونانى فى مصر أن يقدم عن مصر القديمة رواية جديرة بالتقدير الأدبى

رحلة فى بلاد العرب

الآنسة فريا ستارك رحالة انكليزية تجولت كثيراً فى الجزء الجنوبى من بلاد العرب . وقد أصدرت أخيراً كتاباً عن بعض رحلاتها عنوانه « أبواب جزيرة العرب الجنوبية The Southern gatesa of Arabi ، وفيه تصف رحلتها فى حضرموت ، التى اخترقتها وحيدة فى غمر من الصعاب والمشاق الهائلة . وقد كانت حضرموت منذ الأزمان الغابرة أعظم مركز لتجارة « البخور » والعطور الدينية التى لبثت مراكز انتاجها قروناً فى معزل عن العالم ولا سيما أوربا ؛ وقد استطاعت الآنسة ستارك أن تنفذ الى هذه المراكز وأن تتجول فيها ؛ وفى كتابها نحو مائة صورة التقطتها بنفسها تمثل كثيراً من المناظر المدهشة عن طبيعة هذه البلاد وسكانها

ذكرى مؤلف المارسيز

احتفل أخيراً فى أنحاء فرنسا بذكرى مؤلف النشيد القومى (المارسيز) ، روجيه دى ليل لمناسبة مرور مائة عام على وفاته ونظم الاحتفال الرئيسى فى مدينة ستراسبورج مسقط رأس المحتفل بذكراه ، وألقيت الخطب الرسمية تنويهاً بروعة النشيد القومى وعظمة واضعه . وكان روجيه دى ليل ضابطاً فى جيش الثورة ، وكان شاعراً بفطرته ، فوفق إلى وضع هذا النشيد الذى ما زال منذ نحو قرن ونصف قرن يثير ضرام الحماسة القومية فى فرنسا كلما هبت عليها الأزمات أو قرع نذير الحرب ؛ وقد وضع روجيه دى ليل نشيده لجيش الرين الذى كان ينتمى إليه ، ولكن جماعة من المتطوعة المرسيليين (أهل مرسيليا) نقلوا هذا النشيد وأذاعوه فى أنحاء فرنسا ، فسمى نشيد المارسيز منذ أيام الثورة إلى يومنا ، وما زال هذا النشيد القومى الفرنسى يعتبر من أروع الأناشيد القومية ؛ وقد وصفه الكاتب الانكليزى الكبير توماس كارليل بأنه أسعد تركيب موسيقى ، وأعظم غذاء للعزة والحماسة

وفاة كاتب ألمانى كبير

توفى فى باريس أخيراً كاتب سياسى ألمانى كبير هو جورج برنهارت محرر جريدة « باريز — تيتونج » التى تصدر بالألمانية فى باريس . وكان برنهارت قبل قيام الحكومة النازية عضواً فى مجلس الريخستاج (البرلمان) ، وكان ديمقراطياً متطرفاً ، فلما قامت حكومة النازى هرع إلى المنفى فيمن هرع من أكابر الكتاب والساسة اتقاء لبطش طغاة ألمانيا الجدد ؛ ووقف قلمه على محاربة الدعوة النازية فى الخارج ؛ وكان يكتب بالفرنسية فى بعض المجلات والصحف الباريزية بمثل براعته فى اللغة الألمانية

ومعظم أقطاب الكتاب الألمان يعيشون اليوم فى المنفى وعلى رأسهم توماس مان ، وأخوه هنريش مان ، وأميل لودفيج ، وليونارد فرنك ، وغيرهم . ومنهم من غادر ألمانيا بسبب يهوديته مثل لودفيج ؛ بيد أن معظمهم غادرها لأسباب سياسية ، ولأن الحكومة الجديدة لا تسمح بذرة من الحرية للكتاب أو المفكرين

وهكذا يموت أكابر الكتاب الألمانى فى المنفى تباعاً لأنهم لا يستطيعون أن يتنفسوا فى وطنهم

الكتب

سـعد زغلول

سيرة وتحية

تأليف الأستاذ عباس محمود العقاد

بقلم الأديب عبـد الرحمن صدقي

آية هذا الكتاب أن اجتمعت له خصال ثلاث تجعله في عداد كتب السير المشهود لها لأعلام المترجمين، وتلك الخصال هي: التحقيق التاريخي، والتحليل النفساني، والتأثير العاطفي

يقول العقاد في كلمة التمهيد لترجمته: «إن الصديق والمؤرخ في الكتابة عن رجل كسعد زغلول يستويان أو يتقاربان، لأن الصديق لن يقول فيه ما ينكره المؤرخ، والمؤرخ لن يقول فيه ما ينكره الصديق. ومن النقص في جلاء الحقيقة أن يكتب المؤرخ ترجمة لعظيم ثم لا يكون على مودة لذلك العظيم. ولأن يكون الكاتب مؤرخا وصديقاً خيرٌ للتاريخ نفسه من أن يكون مؤرخا وكفى، لأن الترجمة فهم حياة، وفهم الحياة لا يتسق لك بغير عطف ومساجلة شعور»

ولما كان الاستقصاء في طبيعة مؤلفنا الكبير، فقد ابتدأ موضوعه من البداية، فتناول «الطبيعة المصرية» بالبحث الضافي، وعرض لمحك النقد أقوال المؤرخين فيها من أقدم عصور التاريخ، وأخذ باطل المبطلين منهم بالتفنيد المدعم بالأسباب والأسانيد. ثم أبان في فصل آخر عن وجه الحقيقة فيها بما لا يدع بعده زيادة لمستزيد

وانتقل إلى أصل المترجم له، فلم يسكت عن تلميح البعض إلى نسبته إلى غير الأرومة المصرية، ومن هؤلاء من يرد أعراقه إلى المغول والترك، وآخرون إلى البدو أو عرب المغرب، ولقد سرد المؤلف مثار الشبهات عند أولئك المتقولين ليعيد فيها النظر على ضوء علم الأجناس، ثم باستقراء ما هو معروف من طريق القبائل العربية النازحة، فانكشف لمرأى العين ضعفها وصرف عنها الأذهان مقررا أن عراقة سعد في بيئة الفلاح المصري لا تفوقها عراقة زعيم من أبناء الأمم الأخرى

ثم يجيء الكلام عن جيل سعد وطابعه المميز من طلب الاصلاح والدعوة له والغيرة عليه، وبيان الدوافع لهذه الحركة الاصلاحية من الداخل والخارج، وما كان لهذا الجيل من شأن في نشأة سعد واتجاه همته، وصفة أعماله في مستقبل أيامه، ومن هذا الوسيد الكريم، يتطرق القارئ إلى حي البيت القديم، ويتعرف إلى جد زغلول وأبويه وقرابته وطبائع قومه وأسرته، ومظاهر الحياة في بلدته، وإذا بك بعدها ترى سعدا في مدارج طفولته، وتتوسم مخايل نجابته، وتتتبع خطواته من مكتب القرية، إلى الجامع الدسوقي، إلى حلقات معهد الأزهر الكبير

وفي هذه القاهرة المغرية، اندمج الفتى سعد في حركة دعاة الاصلاح وألقى بسهمه مع سهامهم، وكان يحضر الدرس على الشيخ محمد عبده، ويختلف الى مجلس السيد جمال الدين الأفغاني؛ وكان الأول أستاذاً له في الدرس وقدوة في الخلق، وأما لقاؤه للثاني بطبيعته الثورية فكان مرآة مجلوة لنفسه الجائشة وحافزاً لملكاته البيانية والخطابية

ومن ذلك الحين يصح الجزم بأن سعداً قد اتجه فعلاً الى وجهته، واستقام على متن طريقه المقدورة له

ويتسع الأفق فاذا الثورة العرابية ومقاديرها ومعقباتها من نفي وتشريد وحبس. وتشاء العناية لسعد أن يقوم على خدمته ظروف وملابسات، فيفرج عنه على كره من أولياء الأمر. ولا يلبث طويلاً حتى يشق طريقه من المحاماة الى منصة القضاء، ثم

تحمله رغبة الحاكمين فى ارضاء القومية المصرية وفتنذ الى دست الوزارة

هنا تزخر حياة هذا الرجل بالأحداث ، ويظهر أنه المدخور لنهضة وطنية عارمة تعم البلاد من أقصاها الى أقصاها، وتؤلبها فى قوة وإيمان على الغاصبين . ويمضى المؤلف فى تاريخه الضخم يصورها أروع تصوير ، ويدفع عنها المغالطة والتكير ، فى فصول حافلة طوال : فى طريق الوزارة ، سنة ١٩٠٦ ، وزارة المعارف ووزارة الحقانية ، سعد الوزير ، الحركة الدستورية ، الوزير المصرى فى المعاش ، فى ميدان الانتخاب ، الجمعية التشريعية فى خمسة أشهر ، قبيل الحرب ، الحرب العظمى ، تأليف الوفد المصرى ، بدء العمل ، القارعة ، الثورة ، من القاهرة الى مالطة الى باريس ، تأليف الوفد الأول ، موقف الوزارة الرشدية ، برنامج الوفد والامتيازات ، الوفد فى أوربا ، من سفر الوفد الى لجنة ملنر ، المفاوضة فى لندن ، فى مصر أثناء المفاوضة ، بعد عودة الأعضاء ، الوزارة العدلية ، العودة ، الخلاف على المفاوضة ، القطيعة بين سعد والوزارة ، فصل المفاوضات الرسمية ، النفى ، تصريح ٢٨ فبراير ، من المنفى الى الوزارة ، فى رآسة الوزارة ، الملك فؤاد وسعد ، من رآسة الوزارة الى رآسة النواب ، فى رياسة مجلس النواب

وهذه الفصول الطوال تنتظم التاريخ المعاصر كله لمصر الحديثة فى صور حية رائعة تتعاقب على أنظارنا وكأنما كاتبها لا يخط أحرفاً وإنما يرسم تهاويل مجسمة كالتى اشتهر برسمها على جدران المعابد شيخ الرسامين ميشيل انجيلو . على أنه يتخللها هنا وهناك مواقف شتى يقف فيها القنان موقف المحلل الشارح ، كما يلبس أحياناً رداء المدره المناضح

ويختتم المؤلف كتابه كما استهله بفصول دقيقة عميقة لا تتاح لغيره عن زعامة سعد وأثرها ، وعن سعد وخصومه ، وعن شخصيته وأخلاقه ، وعن عقائده . ويبلغ العقاد منتهى حنو العاطفة فى كلامه عن سعد فى بيته ، ومبلغ حدبه على أهله ، وكيف كانت السيدة الجليلة أم المصريين بنفسها المحبة وفطنتها الألمعية وقلبها الكبير ، شريكته بحق فى حياته ومجده . وكذلك يعرض عليك المؤلف الناحية اللينة إلى جانب الناحية الصلبة فى وصفه للقاء الأول واللقاء الأخير . وأما كلمته عن فاجعة الوفاة فانها فى عبارتها الصادقة المؤثرة يطالعها القارئ فيغلبه التأثر مهما يكن جلده ، فاذا هو لا يملك وجده ، وإذا الدمع يخنقه والزفرة تكظ صدره ثم لا تبرح ذهنه هذه الصورة آخر العمر :

« ثم ضعف النبض دفعة واحدة ، بعد انتظامه فى جميع الأدوار الماضية ، فغلب اليأس على الرجاء . وعاده الأطباء للمرة الأخيرة فى التاسعة والدقيقة الخامسة والأربعين ، ونزلوا إلى المكتب لكتابة تقريرهم الأخير . وإنهم لكذلك ، إذ دعى فتح الله بركات باشا إلى غرفة خاله وهو يجود بنفسه فى غيبوبة لم تنقطع منذ الصباح . فاشرأبت الأعناق وأمسك الناس أنفاسهم يترقبون . وما هى إلا دقائق معدودات حتى عاد فتح الله باشا إلى المكتب يمشى كالشيخ الهائم شاحب الوجه مذهول العينين . ولم يجرؤ أحد على سؤاله مخافة أن يكون الجواب المحذور . ولكنهم علقوا أنظارهم جميعاً بعينيه ولبثوا شاخصين ينتظرون . دقيقة واحدة أو دقيقتين ، ولكنهما كانتا من أزمان الأبد فى روع الشاخصين المنتظرين . وفى تلك اللحظة ارتفع صوت ناحب عند الشرفة المطلة على المكتب ، فضرب فتح الله باشا يديه على ركبتيه ، وجلس وهو فى جمود الأموات ..... ومضت ثوان أخرى . مضت والناس فى سكون عميق مرهوب ، وكان كل ما فى بيت الأمة ، وكل ما حوله على أعمق ما يكون السكون ، لا صدى فى المنزل ولا فى الطريق طوال اليومين الماضيين ، حذراً من ازعاج المريض العظيم المأمول الشفاء . فلما ارتفع الصوت الناحب وجم الحاضرون ثوانى قلائل ، كأنما كانوا يستطيلون الأمل المدبر ، أو كأنما كانوا بين تصديق وتكذيب . ثم انفجروا صيحة واحدة بالنشيج والعجيج ، فلم يكن أرهب من ذلك السكون إلا هذا الضجيج الذى اتصل صداه فى لحظات معدودات بكل مكان فى القاهرة ، وكل مكان فى أرجاء البلاد .. »

ولو أرخينا العنان لأعجابنا لأوردنا الكتاب كله شاهداً على فضل كاتبه فى كل ما سطره فيه ، وتبريزه فى نواحيه المتعددة ، وبلوغه الغاية من الفن والوفاء والصدق

ولكننا نقتضب ، فنقول إن جملة القول فى كتاب سعد زغلول للعقاد إنه أعظم نَصَبٍ أقيم للبطل العظيم الراحل

عبد الرحمن صدقى